الفصل الأول

الأصول العامة لنظم مازالت قائمة

- قبائل عشائر عربية من أصل أوربى .
- الطبيب العراف أو المتطبب .
- العائلات العشائرية عند الألبانيين .
- صور من القضاء القبلى فى إفريقيا .
- الوشم رموز وسحر وجمال .
- السنة الصينية والإيرانية .
- الحوزة العلمية فى إيران
- قوانين غريبة فى المجتمعات المتحضرة .
- ..... وموضوعات أخرى .

obeikandl.com

obeikandl.com

• قبائل وعشائر عربية من أصل أوربى[1] :

من أقدم القبائل العربية ذات الأصل الأوربى، تلك القبائل الرومية الأصل التى عرفت «بالحمراء»[2].

وفى منطقة «سانت كاترين» بشبه جزيرة سيناء تقيم قبيلة عربية أخرى ذات أصل أوربى، هى قبيلة «الجبالية»[3] التى يعمل أبناؤها فى خدمة رهبان الدير وزراعة حدائقهم مقابل ما يوزعونه عليهم يوميا من الخبز، إلى جانب ما يتقاضونه من أجور أخرى.

ويحتفظ أولئك «الجباليون» ببعض الملامح والطباع التى تختلف إلى حد ما عن تلك التى يتسم بها سائر البدو فى تلك المنطقة، كما ينفردون بعادات خاصة تخالف فى بعض نواحيها عادات البدو المألوفة، غير أنهم يماثلونهم فيما عدا ذلك من الملامح والطباع والعادات.

وفى شمال الجزيرة العربية تنتشر عشائر الصلبة[4] التى تتميز عن سواها من البدو بامتلاء الوجه، ووفرة شعره، وبياض البشرة ونعومتها، وزرقة العينين، وشقرة الشعر، وعلو الجبة، ونصاعة بياض الأسنان، ورقة الشفتين،

(١) من بحث منشور بمجلة العربى ـ العدد الثامن والخمسون (بتصرف).

(٢) يذكر عنها أنها قد اشتركت فى فتح مصر تحت قيادة عمرو بن العاص.

(٣) نسبة إلى جبل سيناء.

(٤) يرى بعض المحققين والكُتَّاب أن عشائر الصلبة تنحدر من أصلاب الصليبين الذين شتت الأيوبيون والمماليك والتتار شملهم، فهاموا على وجوههم فى الصحراء.

obeikandl.com

ودقة الخصر، ورشاقة القد، كما أن لهجاتهم تتميز بالرقة والرخاوة. ومن أوجه الخلاف الأخرى بينهم وبين سائر البدو العرب أنهم لا يحتفظون بأنسابهم، ويمارسون أعمالاً وضيعة يأنف منها العرب، كما أنهم لا يقتنون الخيل، لأنهم لا يعرفون الكر والفر... أما دوابهم فهى الحمير التى اشتهروا بالاتجار فيها، وبالملح، وبالأعشاب الطبية، كما اشتهروا بالمهارة فى الصيد، ولا يكاد أحدهم يحمل سلاحاً إلا لاستعماله فى هذا الغرض.

وتعد «الصلبة» من العشائر المستضعفة التى تتورع شيم العشائر العربية الأخرى عن إيذائها، وتجد العار كل العار فى ظلمها أو البطش بها؛ ولذلك فهم لا يغزون ولا يتعرضون للغزو، كما أنهم يتميزون بالوداعة والجنوح للسلم.

ومن عاداتهم المميزة أيضًا، أن المرأة منهم لا تُجْبَر على الزواج، بل يؤخذ رأيها فيه... ومما يذكر عنهم أن رجالهم يراقصون النساء ويقبلونهن على مرأى من غيرهم بدون غضاضة... ومن رقصاتهم المعروفة رقصة «الدستبند» التى يدورون فيها وقد أخذ بعضهم يد بعض.

.... وفى شمال الصحراء الغربية تعيش قبيلة ذات سطوة وبأس تسمى «السناقرة»[1].

ويروى سكان تلك الصحراء عن نسب «السناقرة» أن الأمواج ألقت على شاطئ البحر المتوسط ذات ليلة حطام سفينة صيد شراعية لم ينج منها سوى صياد إيطالى يدعى «سنجر»، فأسعفه الأعراب ورحبوا به، وأكرموه، وحببوا إليه الإقامة بينهم، ولما طال به العهد بينهم تزوج من إحدى نسائهم وأنجب

(١) تمتد منطقة إقامتها ونفوذها بين الإسكندرية شرقًا، وطبرق غرباً، وواحتى سيوة وجغبوب جنوبًا... وتعد تلك القبيلة من بطون قبيلة «أولاد على» الكبرى التى تنتسب إلى أحد أبطال السيرة الهلالية.

منها ولدًا، فكبر وتزوج وكثر نسله، واشتد بأسه، حتى انتمى إليه بعض أبناء أخواله، وتكونت منهم قبيلة «السناقرة» التى تتفرع الآن إلى بطون عديدة تحمل أسماء عربية صميمة.

* * *

obeikandl.com

• الطبيب العراف أو المتطبب[1] :

يتمتع الطبيب العرَّاف بمكانة مرموقة لدى كثير من القبائل الإفريقية، حيث له قدسية لديهم، فهو يكشف عن المستقبل، ويفسر الأحلام، ويقدر الفأل والبشير، ويمنع كل مآخذ التطير، ويبعد كل عوامل سوء الحظ.

كما أنه يعطى التعليمات عن موعد غرس الأرض، ومتى يجىء المطر للزرع... وعن طريقة تخصب النساء والماشية، ولا يمكن الانتصار فى الحرب إلا إذا وافق هو على الخروج للقتال، فضلاً عن معالجة المرضى بالأعشاب والحشائش.

ويعرف الطبيب العراف أو المتطب لدى القبائل الهندية فى أمريكا الشمالية باسم «الشامان» ويجمع إلى مهامه دور الكاهن، وتوجيه الأضاحى التى تُقدم من أفراد القبائل إلى الآلهة، وحراسة أرواح الموتى فى العالم الآخر، فضلا عن ذلك يستطيع أن يترك جسده ويطير بروحه وحدها إلى العالم الخارجى إذا أراد ذلك!.. أو أن يتحول إلى صورة حيوان مفترس كالنمر أو غيره!

---

(١) يمكن تعريفه بالرجل الذى يعالج المرضى بدون دراسة متخصصة، على أساس استخدام السحر والشعوذة والتعاويذ مع ممارسة طقوس خاصة.

ويعيش «المتطب» فى مسكن خاص، له طابعه الغريب، منعزلا عن المجتمع.. وفى كثير من القبائل يبيت عند مدخل كهف يعرف بإقامة الأرواح فيه.

«والشامان» يرث عمله عن أبيه، على مثال الطبيب العراف فى إفريقيا. . كما للشامان أهمية خاصة عند بعض قبائل أمريكا الجنوبية، على أساس أنه يقود أرواح الموتى فى مكانها الجديد، حيث إنه الوسيط بين الأحياء وبين هذه الأرواح.

كما أنه يدافع عن القبائل ضد الأرواح الشريرة، ويعين الأماكن التى يكثر فيها الصيد، سواء فى البر أو فى البحر فضلاً عن قدرته على جلب المطر!

وجدير بالإشارة أن الذين يمارسون الطب والعلاج يقال لهم «آبيا إيبوك» Abia ibok والذين يتولون الفصل فى المشكلات المستعصية يقال لهم «آبياأوكان» Abia ukan. والذين يجلبون المطر هم «آبياإدين» Abia Edin . . أما الذين ينبئون بالمستقبل فهم «آبياندومو» Abia Ndomo . . . والذين يمارسون السحر الأسود يطلق عليهم Abia idiok ikok . وهم يلقون كراهية شديدة من أفراد القبيلة.

• العائلات العشائرية عند الألبانيين:

لا تزال العائلات العشائرية ذات المائة فرد فصاعدًا موجودة فى أوربا، خاصة فى ألبانيا... فرئيسها الأكبر، ومجلس الأسرة وشبابها وفتياتها موزعون على مختلف المهام والأدوار، وتؤمن لهم العائلة كل احتياجاتهم؛ حيث إن العائلة الجماعية مرتبطة عند الألبانيين بتقاليدهم العشائرية القوية التى حافظت على تأثيرها منذ القرون الوسطى[1]، ولهذه التقاليد قوانينها وأعرافها عند الألبانيين، وهى تتمركز كلها فى قانون «دوكاجينى» العشائرى، الذى خضع له الألبانيون على مر العصور، مع أنه كان يتعارض فى كثير من الأمور مع القوانين الشرعية والوضعية التى عاش تحت ظلها الألبانيون من مسلمين ومسيحيين.

والعائلة الجماعية عبارة عن عدد من العائلات الصغيرة تقاسمت العمل والعيش معًا. وهذه العائلات الصغيرة تنحدر عادة من جد واحد، أى أنها بكاملها عبارة عن أحفاد جد قبل ٢٠٠: ٣٠٠ سنة أو أكثر.

---

(١) يلاحظ أن استمرار العائلة الجماعية عند الألبانيين ارتبط أيضاً بالظروف الأمنية والسياسية، فقد عاش الألبانيون فى منطقة كان يحكمها منطق القوة: السيف أولاً، والبندقية فيما بعد؛ ولذا فقد كانت العائلة تستطيع أن تدافع عن نفسها، ولا سيما أن العائلات الكبيرة عاشت وما زالت تعيش فى بيوت أشبه بالحصون التى لا يمكن اقتحامها بسهولة.

وعادة يتوزع رجال وشباب العائلة الجماعية على الأعمال المختلفة حسب قدراتهم وحاجات العائلة لهم، فبعضهم يعمل فى الزراعة، وبعضهم يعمل فى الرعى، على حين أن بعضهم يجمع إلى ذلك بعض الأعمال الحرفية، وبذلك تكاد تكون العائلة الجماعية مؤسسة اقتصادية متكاملة تنتج فيها معظم حاجاتها.

وعلى رأس هذه المؤسسة هناك رب العائلة Zoti shtepise الذى يكون له عادة مساعد أو مساعدان... وحسب العادة فإن رب العائلة يكون أكبر أفرادها سنا، وقد يكون صغير السن إذا كان يتمتع بمؤهلات أكثر من غيره، وعادة ينتخب رب البيت من قِبَلِ «مجلس العائلة» الذى يتألف من رجال العائلة وشبابها البالغين، ويتم هذا الانتخاب لفترة غير محدودة، وفى الحقيقة يتمتع رب العائلة بصلاحيات واسعة للغاية، فهو أولاً يمثل العائلة بكاملها أمام المجتمع، ويستطيع أن يقضى باسمها كل الأمور المتعلقة بها، كما أن له الحق فقط فى شراء ما يريد، وفى بيع ما يَزيد، حيث إنه يملك مفاتيح الصندوق المالى للعائلة.

غير أن هناك صفة يفترضها القانون العشائرى فى رب العائلة، هى العدالة فى تسييره لشئون العائلة؛ إذ أن انعدام العدالة يؤدى إلى عدم الرضا، وإلى الخلاف، وبالتالى إلى الانفصال.

..... وفى المقابل تكون سيدة العائلة من أكبر النساء سنا، كما تكون لها مساعدة أو أكثر من نساء العائلة الأخريات.

ومن صلاحيات سيدة العائلة أن تقرر نوع الأكل الذى يُعد للغداء أو للعشاء، ولكن حين يأتى ضيوف للعائلة يقوم رب العائلة بالتشاور مع سيدة العائلة حول ما يجب إعداده حسب أهمية الضيوف.

هذا، وتقوم العائلة الجماعية بتأمين كل حاجات أفرادها من طعام وملبس، كما تمنح بدلاً خاصا للذين يدخنون منهم، أو يُعْطَوْنَ فى كل شهر كمية معينة من الدخان... كما تلتزم العائلة الجماعية بنفقات زواج كل شاب فيها... وعادة يكون الزواج حسب الدور، أى يتزوج الأكبر فالأصغر سنا، وهكذا... وبعد الزواج تخصص للشاب المتزوج غرفة خاصة فى البيت له ولزوجته.

وفى المقابل يقوم هؤلاء الشباب والرجال بالعمل حسب المهمات الموزعة عليهم، ويقدمون كل ما يكسبونه من نقود إلى الصندوق المالى للعائلة، ومن هذا الصندوق يعودون ليأخذوا النفقات الطارئة التى يحتاجون إليها... أما الفتيات والنساء فعملهن ينحصر عادة فى البيت أو حلب الحيوانات والعناية بها... وكل امرأة تقوم بإعداد الخبز لكل العائلة لمدة ٤:٥ أيام فى الشهر، وذلك حسب عدد النساء فى العائلة، وبعد هذه تهتم المرأة لمدة ٤:٥ أيام بنظافة غرفة الرجال، أو ما تسمى بغرفة الضيوف فقط. وبعد هذه تصبح حرة وتلتفت إلى أعمالها الخاصة التى تتعلق بها وبزوجها وبأولادها.

أما الفتيات فيشتغلن فى أعمال بسيطة للمساعدة فى بعض الأمور إلى أن يأتى من يخطبهن... والعادة أن تخطب الكبرى فالصغرى، فلا يمكن أن تخطب فتاة فى العائلة طالما أن هناك من هى أكبر منها، وعادة يجتمع «مجلس العائلة» للتقرير فى قبول أو رفض الخاطب، وبعد الخطبة تتحرر الفتاة من أى عمل وتتفرغ للإعداد لجهازها الذى ستأخذه معها إلى بيت زوجها.

والحياة اليومية عند العائلة الجماعية تبدأ كل يوم فى مساء اليوم الذى يسبقه، ففى كل مساء يجتمع عند العشاء شباب ورجال البيت الكبير، حيث يتحدثون فى الأعمال المطلوبة لليوم التالى، فيقومون باقتسام وتوزيع هذه الأعمال فيما بينهم.

وفى الصباح تدب الحياة فى هذه العائلة كما لو كانت خلية نحل. فكل فرد يتوجه إلى عمله المتفق عليه مسبقاً، سواء فى الحقل أو المرعى أو العمل الذى يمتهنه... وبذلك يخلو البيت من الشباب والرجال لتبقى فيه النساء فقط، غير أن العادة تقضى أن يبقى أحد الكبار المسنين فى البيت لطارئ ما، أو لاستقبال أحد الضيوف فيما لو جاء على حين غرة... وخلال هذه الفترة تنصرف النساء إلى أعمالهن المنزلية إلى حين موعد الغداء، حيث يعود بعض الرجال من أعمالهم، على حين يتأخر البعض الآخر إلى الغروب...

وفى المساء يلتئم شمل الشباب والرجال ثانية فى غرفة الرجال، التى هى أيضاً عبارة عن غرفة الضيوف.

وفى العادة تبدأ الزيارات فى القرية بعد الفراغ من العمل فى المساء، وغالبًا ما يقوم بها أحد أفراد العائلة الجماعية باسم كل العائلة... وهذه الزيارة تكون قصيرة؛ لأن عليهم أن يستيقظوا مبكرًا فى صباح اليوم التالى.

ومما هو جدير بالذكر أن العائلات الجماعية ما زالت تكافح فى سبيل استمرار وجودها وسط المصاعب التى تواجهها... ومع أن عدد العائلات الجماعية قد انخفض بشكل واضح لدى الألبانيين فى الفترة الأخيرة، فإن عدد هذه العائلات لا يزال كبيرًا بالمقارنة مع انعدام وجودها فى المحيط الأوربى بشكل عام.

* * *

• صور من القضاء القبلى فى إفريقيا[1] :

من المجتمعات القبلية الإفريقية مجتمعات يتخذ النظام السياسى فيها شكلاً هرميا، ففى القمة الرئيس الأعلى، وهو زعيم القبيلة، وينوب عن الرئيس فى إدارة شئون بطون القبيلة رؤساء محليون. . .

كما يتولى شئون القرى أو المضارب رؤساء آخرون. . . ويتمتع هؤلاء الرؤساء عادة باختصاصات قضائية، فشيخ القرية له اختصاص قضائى معين يتمثل فى نظر المنازعات البسيطة التى تثور بين أفراد قريته.

وشيخ الحى أو البطن ينظر الدعاوى التى هى أكثر أهمية، أو تلك التى سبق نظرها بواسطة شيخ القرية، ولم يرض أحد الطرفين عن الحكم الصادر فيها.

. . . . أما شيخ القبيلة فيختص بنظر الدعاوى التى تعتبر لسبب أو لآخر بالغة الخطورة، أو تلك التى سبق نظرها بواسطة شيخ الحى أو البطن، ويرغب أحد الطرفين فى إعادة عرضها على محكمة شيخ القبيلة.

وفى بعض المجتمعات القبلية لا يوجد مثل هذا التنظيم الهرمى للسلطة، ومن ثم يفتقد فيها أيضًا التنظيم المماثل للقضاء، فالسلطة فى هذه المجتمعات

---

(١) مجلة العربى: العدد ١٩٢ (بتصرف).

تتركز فى يد مجلس من الكبار . . . ويتمتع هذا المجلس باختصاصات متعددة من بينها اختصاصات قضائية، فيقوم هذا المجلس بدور المحكمة.

* **محاكم نسائية:**

وللنساء فى بعض المجتمعات الإفريقية الحق فى تكوين مجالس خاصة بهن، وتتمتع هذه المجالس أحيانًا ببعض اختصاصات قضائية فلدى «الإيبو» فى نيجيريا لكل قرية مجلسها النسائى الخاص بها، الذى يتولى أحياناً بمفرده ـ أو بالاشتراك مع كبار الأعضاء الذكور فى الأسر المعنية ـ نظر المنازعات الزوجية، وبعض القضايا الأخرى الخاصة بالنساء.

كذلك تتمتع زوجة زعيم القبيلة فى بعض المجتمعات الإفريقية باختصاصات قضائية. فلدى «الباسوتو» بجمهورية «ليسوتو» محكمة نسائية ترأسها زوجة زعيم القبيلة التى تعتبر بحكم القانون السيدة الأولى فى القبيلة، والرئيسة الرسمية لشعائر البلوغ الخاصة بالفتيات، وتناقش هذه المحكمة المسائل المتعلقة بالنساء، ويمكنها اتخاذ إجراءات تأديبية حين تقترف إحدى النساء أفعالاً قبيحة، أو حين تخالف المحظورات الجنسية.

* **إجراءات رفع الدعوى:**

وهى تبدأ بأن يتقدم من يرغب فى رفع دعوى إلى القاضى المختص الذى يستمع إلى دعواه، ثم يحدد موعداً لنظرها، وبعد تحديد اليوم المخصص لنظر الدعوى يعلن المدعى عليه والشهود، ويتم إعلانهم بواسطة شخص يتمتع بالصفة العامة. فلدى «الهوتنتوت» بجنوب غرب إفريقيا مثلاً يُدْعَى الخصوم أو المتهمون والشهود بواسطة رسول عام يحمل علامة على وظيفته عصًا طويلة. . . وعند دخول كوخ المدعى عليه يدق بها على الأرض ثلاث

مرات بدون أن يتفوه بكلمة، ثم يخرج فى صمت كما دخل... وعندئذ يعلم صاحب الكوخ أنه مطلوب للمثول أمام المحكمة.

ولدى «الماساى» فى كينيا وتنزانيا يكلف القاضى منادياً، وهذا المنادى يـتعين فى أداء مهمته بمزمار.

ويلتزم المدعى عليه والشهود المعلنون بالحضور أمام المحكمة... وإذا لم يحضر أحدهم من تلقاء نفسه أجبر على الحضور ولو باستعمال القوة... فلدى «الهوتنتوت» إذا رفض المدعى عليه الحضور أو لم يبعث بعذر مقبول فى الوقت المناسب أُرْسِلَ إليه عدد من الرجال الأشداء يحملونه عنوة، ويتلقى عددًا من الجلدات جزاءً له على تحديه الإعلان بالحضور.

ويجرى العرف فى كثير من المجتمعات القبلية بدفع رسوم تقاضٍ أو أتعاب المحكمة، وقد تدفع هذه الرسوم عند بدء إجراءات التقاضى، وقد يؤجل دفع الرسوم إلى ما بعد الفصل فى الدعوى... وتتخذ هذه الرسوم عادة صورة رأس من الماشية أو رأس من الغنم أو الماعز... ومن الواجب دفعها ولو «بالفم» قبل بدء الدعوى... ولدى قبيلة «الكميا» يدفع المحكوم عليه فى سرقة ـ فضلاً عن التعويض الذى يحكم به للمسروق منه ـ رأساً أو أكثر من الماعز، وبعض الجعة للقضاة، على سبيل الأتعاب... كذلك الحال لدى «الجيسو» فى أوغندا، حيث كان السارق يُلْزَم ـ فضلاً عن رد الشىء المسروق ـ بدفع رأس من الماعز لشيخ القرية وزملائه، وكانت هذه الماعز تذبح وتؤكل بواسطتهم.

ويحدد العرف كيفية انعقاد الجلسة، وكيفية جلوس القضاة والخصوم والشهود وجمهور الحاضرين. فلدى «الهوتنتوت» مثلاً تجتمع المحكمة عادة فى الهواء الطلق فى ظل شجرة، حيث يجلس الجميع فى هيئة دائرة..

ويظل المدعى عليه واقفًا أو جاثيًا وسط دائرة المحكمة. . . وإذا كان المدعى عليه امرأة سمح لها بالجلوس، ويقف المدعى أو يجلس على مقربة حتى يدعى إلى الكلام، وعلى الشهود البقاء على بُعد مناسب.

وتبدأ مناقشة الدعوى بعرض المدعى دعواه، ثم يطلب إلى المدعى عليه إبداء وجوه دفاعه، ثم يستدعى الشهود واحدًا بعد الآخر. ويحظر العرف مقاطعة كل من الخصمين خصمه أثناء حديثه، وتناقش المحكمة الخصوم والشهود. . . وتستمر المناقشة إلى أن تتوصل المحكمة إلى تكوين رأى تحكم به على ضوئه. . . وعندئذ يطلب من الطرفين والشهود وغيرهم من الحاضرين الانسحاب، ويبقى أعضاء المحكمة للتداول، وقد ينسحب القضاة أنفسهم لهذا الغرض. . ثم يقوم رئيس المحكمة بإعلان الحكم على مرأى ومسمع من الجميع.

وتعرف المجتمعات القبلية الإفريقية إجراءات التنفيذ، أى تنفيذ العقوبات المحكوم بها، ففى الدعاوى التى تتعلق بجريمة من الجرائم العامة ينفذ الحكم الصادر فيها بواسطة رئيس القبيلة نفسه، أو بواسطة معاونيه.

وقد يوجد إلى جانب الرئيس أشخاص متخصصون فى تنفيذ أحكام الإعدام والجزاءات البدنية، كالجَلْد. وفى حالة تنفيذ حكم الإعدام يوجه رئيس القبيلة الضربة الأولى إلى المحكوم عليه، ثم يجهز عليه الحاضرون.

كذلك يتولى أعوان الرئيس تحصيل ما يحكم به من غرامات.

أمَّا بالنسبة لوسائل الإثبات، فتعد شهادة الشهود هى وسيلة الإثبات العادية، حيث يُستعان بها كلما كان ذلك ممكناً، ولا يُستعان بغيرها من الوسائل إلا فى الأحوال التى يتعذر فيها الحصول على شهود للواقعة التى يراد إثباتها.

وللمحكمة أن تستعين بما يسمى بالابتلاء، وهو إجراء يخضع له من يشتبه فى ارتكابه جرمًا بدون أن يقوم فى مواجهته دليل كافٍ لإدانته. والابتلاء هو التجاء إلى القوى الغيبية، بقصد الحصول على مساعدتها فى الكشف عن الحقيقة. وللابتلاء فى المجتمعات القبلية الإفريقية صور متنوعة:

فلدى قبائل «الجوكون» فى نيجيريا قد يطلب إلى المبتلى التقاط حلقة من حديد فى إناء به ماء يغلى، فإذا كان بريئًا لم يخف والتقط الحلقة بدون أن يلحقه أذى.

وقد يُوضع مقدار من الحطب فى إناء صغير، ويُشْعَل الحطب، ثم يوضع الإناء فوق معدة المبتلى، فإذا التصق الإناء ببطنه عُدَّ مذنباً، أما إذا سقط على الأرض فى الحال فيدل ذلك على براءته.

كذلك قد تستعين المحكمة بعراف إذا تعذر عليها كشف الحقيقة. والعراف يستعين بشريطين صغيرين من الجلد ينتهى أحدهما بخرزة من النحاس، والآخر بخرزة من الحديد، ويلقى بالشريطين من بين يديه فى الدائرة المكونة حوله من المحكمة والخصوم، وتشير النهايتان اللتان رُبطت فيهما الخرزتان إلى الفاعل، ويلاحظ بعناية المتهمين أثناء انشغاله بشريطيه، والفاعل الحقيقى لا يستطيع كتمان مخاوفه، الأمر الذى يؤدى إلى تمكين العراف من اكتشاف المتهم سريعًا.

* * *

* تنظيم النسل فى المجتمعات القبلية[1]:

عرفت المجتمعات القبلية بعض الوسائل التى تستهدف منع الحمل، ومن

(١) دراسة منشورة بهذا العنوان بمجلة العربى عدد نوفمبر ١٩٨٦ (بتصرف).

هذه الوسائل وسائل من الممكن أن نسميها وسائل سحرية، حيث لا ارتباط بينها وبين منع الحمل فى الواقع، فهى وسائل تستند إلى مجرد الخرافة، ولا أثر لها على الإطلاق فى منع الحمل... والوسائل الخرافية فى المجتمعات القبلية كثيرة ومتنوعة، ويغلب اللجوء إلى هذه الوسائل السحرية فى حالة الاتصال الجنسى بين أشخاص غير متزوجين.

وهناك مناسبات معينة يتطلب العرف فيها الحيلولة دون حمل المرأة، وأهم هذه الحالات وأكثرها شيوعاً هى حالة كون المرأة مرضعاً، ففى الغالبية العظمى من المجتمعات القبلية يتطلب العرف ألاَّ تصبح المرضع حاملاً قبل فطام طفلها الرضيع؛ ولهذا يتطلب العرف من الزوج ممارسة العزل خلال مدة الرضاع، التى تتراوح عادة بين سنتين وثلاث سنين.

فلدى قبائل «البمبا» مثلاً يمتنع الزوج عن الاتصال الجنسى بزوجته بعد الولادة وحتى فطام الطفل، غير أنه يجوز للزوج بعد بضعة أشهر، وبعد القيام بشعيرة خاصة أن يستأنف الاتصال الجنسى المقترن بالعزل.

وقبائل «الطوارق» فى الصحراء الكبرى يرون فى الحمل تحقيقًا لإرادة الله تعالى وحده، بمعنى أن الحمل يحدث عندما يشاء الله له أن يحدث، ومع ذلك فهم يقرون بعلاقة السببية بين الاتصال الجنسى والحمل، ولا يشكون مطقًا فى أن المرأة لا يمكنها أن تحمل بدون اتصالها جنسيا برجل.

ويجرى العرف فى كثير من المجتمعات القبلية بحظر العلاقات بين الزوجين فى مناسبات متعددة، وتختلف هذه المناسبات من قبيلة إلى أخرى، حيث إن حظر الاتصال الجنسى بين الزوجين فى بعض المناسبات يستند إلى اعتبارات متنوعة، ويستهدف تحقيق غايات معينة. فمن الشائع فى الأعراف القبلية خطر الاتصال الجنسى خلال فترة الحداد، فأقارب الميت يحظر عليهم

كل اتصال جنسى خلال فترة معينة، هى فترة الحداد التى قد تطول أو تقصر تبعًا للقبائل، ويقتضى الأمر عادة القيام بشعيرة معينة على سبيل التطهير، قبل أن يحل للرجل استئناف النشاط الجنسى، ومن شأن هذه العادة أن تؤدى إلى الإقلال من فرص الاتصال بزوجته، والإقلال بالتالى من فرص حملها.

من ذلك مثلاً أن قبائل «الفندا» فى جنوب إفريقيا يحظرون على الرجل الذى فقد قريبًا له أو ساعد فى دفن شخص ـ ولو لم يكن قريبًا ـ الاتصال الجنسى بأيه أنثى مدة شهر أو شهرين، إلى أن تقام شعائر التطهير اللازمة، والتى تستهدف استبعاد شبح الميت..

أما بالنسبة لحظر الاتصال الجنسى بالزوجة المرضع طيلة فترة الرضاعة، فيرجع إلى الاعتقاد بأنه إذا حدث حمل عقب الولادة بقليل، فإن هذا المولود الجديد سوف يولد مريضًا أو مصاباً بالعته، وأن مصيره الموت السريع[1]؛ ولذا فعندما تلاحظ المرأة انقطاع الدورة الشهرية فإنها تبلغ زوجها، وعندئذ تتوقف العلاقات الجنسية بينهما منذ هذه اللحظة، وبمجرد أن تشعر الزوجة بآلام المخاض، يغادر الزوج الكوخ ولا يعود إليه إلا بعد انقضاء شهر الولادة، غير أن الاتصال الجنسى بينهما لا يستأنف قبل مضى عام، وقد تصل لدى بعض القبائل إلى خمس سنين...

كما يعتقدون أن مخالفة الحظر يهدد أيضاً حياة الطفل الرضيع؛ ولذا إذا خُولف الحظر ومات الطفل عُدَّ الأب مسئولاً عن موته، ومن حق أقارب زوجته مطالبته بتعويض لذلك.

---

(١) يجدر بنا أن نشير إلى أنه قد جرت عادة العرب قبل الإسلام بحظر الاتصال الجنسى بين الزوجين أثناء كون الزوجة مرضعًا، وهو ما يعرف «بالغيلة». فقد كانوا يعتقدون أن اتصال الزوج بزوجته أثناء قيامها بإرضاع طفل من شأنه أن يلحق بهذا الطفل الرضيع أبلغ الضرر.=

ولدى قبائل «الإيلا» إذا مرض رجل أو امرأة وجب عليه الامتناع عن الاتصال الجنسى، وإلا ازداد المرض سوءًا، كذلك من واجب المرأة التى تقوم بعمل «الجعة» أن تمتنع عن المعاشرة الجنسية، وإلا ما اختمرت «الجعة»...

كذلك تمتنع المرأة عن كل اتصال جنسى قبل بذر حقولها، خشية عدم إنبات البذور، واللاتى يقمن بطحن الحنطة من واجبهن الامتناع فى الليلة السابقة على بدء العمل... كذلك على الرجل الذى يزمع القيام بالسفر أن يمتنع عن كل اتصال جنسى فى الليلة السابقة، وإلا حالفه سوء الحظ...

كذلك على الرجال الذين يزمعون الذهاب إلى صيد السمك، أو نَصْب الفخاخ، أو حفر الآبار من أجل الماشية، أن يمتنعوا عن كل اتصال جنسى فى الليلة السابقة. وعلى الرجال الذاهبين إلى الحرب أن يمتنعوا تماما عن الاتصال بالنساء منذ الإعداد للحرب، ومخالفة هذا الحظر تعنى حتماً الموت فى الحرب، وربما تؤدى إلى إلحاق كارثة بالجيش.

*** الإجهاض في المجتمعات القبلية(١):**

هناك أسباب عديدة تدفع إلى الإجهاض فى المجتمعات القبلية، وفى مقدمة هذه الأسباب الرغبة فى التخلص من حَمْل سابق على الزواج، ففى بعض المجتمعات القبلية لا يؤثم الرأى العام العلاقات السابقة على الزواج، ولو أدت إلى حمل، ولا يرى الراغب فى الزواج عيبًا بالفتاة أن تكون لها ولد أو اثنان من علاقتها بشاب آخر، بل قد يسعده ذلك، باعتبار أنه دليل لا شك فيه على خصوبة الفتاة.

= وأن من شأن هذا الضرر أن يلازمه طيلة حياته، وقد كانوا ينسبون شجاعة الفارس وإقدامه إلى أن أمه لم تكن لها علاقة جنسية بأبيه أثناء فترة الرضاعة.

(١) المرجع السابق (بتصرف).

غير أن معظم القبائل تؤثم تقاليدها كل اتصال سابق على الزواج، وبخاصة إذا تمخض عنه حمل، وفى بعض هذه القبائل الأخيرة تتعرض الفتاة الحامل للقتل، وحتى إذا لم يجر العرف بقتل الفتاة، فإن وجود ولد لها من علاقة سابقة على الزواج من شانه أن يقلل فرصتها فى زواج مناسب، أو فى الزواج أصلاً. . . وحتى فى حالة زواجها فمثل هذه الفتاة لا يُدفع من أجلها عادة سوى مهر قليل القيمة. ومن هنا نفهم حرص أسرة الفتاة والفتاة نفسها التى تحمل من علاقة غير شرعية على التخلص من هذا الحمل بالإجهاض.

كذلك قد تلجأ إلى الإجهاض امرأة متزوجة حملت من علاقة غير شرعية، كما تلجأ إلى الإجهاض الزوجة التى تبغض زوجها، ولا ترغب فى الإنجاب منه، ويكون ذلك تمهيدًا للانفصال بين الزوجين.

وفى بعض المجتمعات القبلية يستتبع الإجهاض الذى يقع بإرادة الزوجة إعطاء الزوج الحق فى تأديبها، وقد يعطيه الحق فى مطالبة أهلها بتعويض عن الضرر الذى لحق به بسبب حرمانه من المولود. . . فعند قبائل «الأوفامبو» فى جنوب إفريقيا يعد الحمل السابق على الزواج عارًا قوميا، وإذا اكتُشف حمل فتاة من علاقة سابقة على الزواج، كانوا يأخذونها إلى الغابة حيث يوثقون إليها بعض حزمات من العشب، ثم يحرقونها وهى حية، ويعامل بنفس الكيفية الرجل الذى تسبب فى حملها.

ولدى «الهوتنتوت» فى جنوب غربى إفريقيا، عندما يكتشف الإجهاض تقدم المرأة وَمَنْ عَاوَنَها ـ من النساء ـ إلى مجلس القبيلة الذى يأمر بجلد كل منهن أربعين جلدة، وكانوا يسمحون لعشيق المرأة ـ إذا أراد ـ أن يتحمل منها عشرين جلدة.

ومن وسائل الإجهاض فى المجتمعات القبلية ما يجرى به العُرف لدى

قبائل «الأوفامبو» من الدق دقا عنيفًا أسفل بطن الحامل باستخدام مدقات خشبية ثقيلة، أو بشد البطن شدا محكماً بحبل من الليف.

ومنها ما يجرى به العرف لدى قبائل «النيانكولى» من مَدِّ قطعة من القماش فوق إطار كبير من الخشب، وتدخل الفتاة الحامل تحت هذا الإطار، حيث وضعت جمرة يحترق فوقها عشب معين، ويستتبع الدخان الناجم من حرق هذا العشب مرض الفتاة، وبالتالى إلى إجهاض الفتاة لا محالة بعد زمن قصير.

وفى بعض المجتمعات القبلية يجرى التخلص من المولود الجديد إذا كان الوقت مازال مبكرًا على فطامه.. فقد يُولد طفل أو اثنان قبل فطام طفل رضيع، وفى هذه الحالة يتخلصون من المولود الجديد بدفنه فى أقرب جحر أو حفرة تُعدها لهذا الغرض العجوز التى تعاون الزوجة عند الولادة، وتنفذ العملية غالبًا ضد رغبات الزوج، ولكن تصر الزوجة على عدم تربية طفل آخر حتى يصبح الأول فى غنى عن اللبن، ولا سيما أن الأم تضطر إلى إرضاع الطفل حتى الثالثة أو الرابعة، كما هو الحال فى مجتمعات «البوشمن»[1] فى صحراء كلهارى.

ولدى سكان أستراليا الأصليين من النادر أن تحتفظ الأم بأكثر من طفلين، ويرجع ذلك إلى استحالة أن تحمل الأم عدة أطفال فى نفس الوقت أثناء تَجَوُّلِهَا المستمر، فضلاً عن ذلك، فإن امتداد فترة الرضاعة يحول دون أن يكون لها طفلان فى سن صغيرة.

*** التوائم والتشاؤم:**

ينظر الناس ـ فى كثير من المجتمعات القبلية ـ إلى التوائم على أنها نذير

(١) هى مجتمعات تعتمد فى معيشتها على جمع الأعشاب والثمار وقنص الحيوانات.

شؤم ومصدر شر؛ ولذلك فهم يسارعون إلى التخلص منهم، تخلصًا من المصائب التى ترتبط بمقدمهم.

وفى بعض المجتمعات القبلية لا يقتصر الشؤم أو النحس على التوائم فحسب وإنما يمتد إلى الأم؛ ولذلك كانوا يقتلون الأم، كما كانوا يئدون التوائم، وفى بعض الأحيان كانوا يئدون التوائم، ويكتفون بنفى أمهاتهم إلى الغابة، حيث يعشن بعيدًا عن الجماعة.

ويجرى العرف فى كثير من المجتمعات القبلية بالتخلص من الأطفال المشوهين، أو الذين يولدون بصورة شاذة، وذلك لاعتقادهم أن هؤلاء الأولاد نذير شؤم، وأن التخلص منهم يجنب أهلهم الكوارث المهددة.

ولَدَى الأقزام فى غابات «الكونغو» تقتل الأمهات أطفالهن الذين يولدون مشوهين أو عجزة بمجرد ولادتهم، ولا يسمح للرجال حتى بإلقاء نظرة على هؤلاء الأطفال...

كذلك لا يسمح «الجوكون» فى شمال نيجيريا للأطفال الممسوخين أو المشوهين بالحياة، وإنما يتركونهم ليلاقوا حتفهم فى الغابة أو فى كهف.

وفى قبائل «داهومى» كانوا يتخلصون من الأطفال الذين يولدون ولهم ست أصابع فى اليد أو القدم.

ولدى «التسوانا» كانت العادة تجرى بوأد الأطفال الذين يولدون بأقدامهم أولاً بدلا من رءوسهم، وأولئك الذين تبدو قواطعهم العليا قبل السفلى.

وفى بعض المجتمعات القبلية يحظر العرف كل علاقة جنسية من بعض الأشخاص بصورة مطلقة، كما يحظر على بعض الأشخاص الاتصال الجنسى فى ظروف معينة... ومخالفة هذا الحظر تستتبع عادة جزاءً يتسم بالشدة البالغة، ولا يقتصر الأمر فى مثل هذه الحالات على مجازاة الفاعل أو

الفاعلين، بل يسارع القوم إلى التخلص من الطفل الذى جاء ثمرة لهذه العلاقة المحظورة.. مثال الطفل الذى تلده فتاة لم يتم ختانها بعد، أو لم تُجْرَ لها شعائر الانتقال والبلوغ...

فلدى قبائل «الإيلا» إذا حملت فتاة قبل مرورها بشعائر البلوغ، يقولون عنها إنها حملت بكائن غير طبيعى، ولا يـمحون لهذا الكائن بالحياة... بل يسارعون إلى قتله بمجرد مولده.

كما يحرم العرف القبلى لدى بعض المجتمعات القبلية كل علاقة جنسية بين الأقارب الأقربين، وإذا خولف هذا الحظر وتمخضت العلاقة عن حمل، لم يسمح للمولود بالبقاء على قيد الحياة... فلدى قبائل «الكونجو» كانوا ـ فيما مضى ـ يحرقون الجناة أحياء كما كانوا يمحون ثمرة الجريمة بدون رأفة.

وقد يحظر العرف ـ فى بعض القبائل. كل حمل سابق على الزواج، فإذا حملت فتاة قبل زواجها عوقبت، ولم يسمح لوليدها بالبقاء على قيد الحياة... فلدى قبائل «البانيا رواندا» «والباروندى» تطرد الفتاة التى تحمل قبل الزواج، وأحياناً تغرق أو تنفى إلى جزيرة مهجورة... وكثيرًا ما كانت تلك الفتاة تذهب لتلد طفلها فى الغابة، حيث تتركه ليلقى حتفه، إن لم تقتله بمجرد ولادته.

وفى بعض المجتمعات القبلية، جرى العُرف بوأد الأطفال الذين يولدون فى أزمنة معينة يرونها شؤمًا.

ففى جزيرة «مدغشقر» كانت العادة تجرى بوأد الأطفال الذين يولدون فى شهر مارس أو أبريل... أو الذين يولدون فى الأسبوع الأخير من الشهر، أو الذين يولدون يوم أربعاء، أو يوم جمعة، وذلك بنبذهم أو خنقهم أو حرقهم أحياء.

وبالإضافة إلى الحالات السابقة هناك حالات أخرى يجرى العُرف فيها بوأد الأطفال، من ذلك مثلاً ما يجرى به العرف فى بعض القبائل من دفن الرضيع مع أمه عند وفاتها أثناء الولادة، ومن ذلك أيضًا ما جرى به العُرف فى بعض القبائل من قتل المولود الأول لكل زوجة.

وفى قبائل «الكول» فى الهند مثلاً لا تحتفظ الأسرة فى الغالب بغير ابنة أو ابنتين، أما ما زاد عن ذلك من بنات فيوضعن حين ولادتهن فى آنية من فخار ويُدْفَنَّ.

وعند «الأرابش» فى غينيا الجديدة لا يحتفظ الأب بالمولود الأنثى إذا كان لديه من قبل عدد من الأطفال الإناث، «فالأرابش» يفضلون الأبناء الذكور... وهم يعتقدون أن الاحتفاظ بابنة أخرى بعد ابنة أو ابنتين سابقتين من شأنه أن يؤجل فرصة الحصول على ابن مدة طويلة.

وقد أدت كثرة الالتجاء إلى وأد البنات ـ فى بعض المجتمعات القبلية ـ إلى ندرة النساء ندرة بالغة، مما أدى إلى نشوء نمط للزواج يتمثل فى اتخاذ عدد من الرجال زوجة واحدة... وهو ما يعرف بتعدد الأزواج، وبرغم أن الإناث مصدر النسل، والإقلال منهن يؤدى بالضروة إلى الإقلال من النسل، فغالبية المجتمعات القبلية تلجأ إلى وأد الإناث أكثر مما يحدث بالنسبة للذكور، حيث يفضلون أن يكون لهم أبناء يحملون أسماءَهم ويخلدون نسبهم، ويرثون أموالهم، على أن تكون لهم بنات ينجبن أبناءً لرجال آخرين[1].

* * *

(١) المرجع السابق (بتصرف).

* **السحر الأسود فى إفريقيا:**

ما زال يسيطر على كثير من القبائل فى شرق إفريقيا الاعتقاد بوجود الروح فى كل شىء، حيث إن لكل الأشياء الحية وغير الحية نفوسًا داخلية غير مرئية، سواء أكانت شجرة، أم حجرًا، أم حيوانًا.

وهذه النفوس هى التى تجعلها تبدو فى الصورة التى هى عليها... وهى نفوس واعية لها أحاسيسها الخاصة، تستطيع أن تنتقم إذا أثيرت. فإذا حرك شخص صخرة ما، فالأفضل له أن يفعل شيئًا لاستعطاف الروح التى تعيش فيها، وإلا سببت له ضررًا وأذًى كبيرًا. وكلما كان حجم الصخرة كبيرًا، زادت اللعنة التى تحل به. وهذا الأمر ينطبق على الأنهار والأشجار والغابات والسحب الرعدية!

كما أن هناك الاعتقاد أيضًا بمسألة الخلود الإنسانى. فبعد الموت المادى تذهب الروح البشرية إلى السماء فترة ما، ولكنها تعود لتسكن فى كوخ الأسرة، أو على مقربة منه، منتظرة أن تعود للتقمص داخل الأسرة فى صورة طفل... والطفل الجديد فى المجتمع الإفريقى لا يشبه قريبه الميت، بل هو هذا القريب فعلاً!

ويقف الإفريقى وسط هذا التعدد الروحى فى مزيج من الأمل والرهبة، ولما كان يؤمن بأن سلوك الأرواح من الممكن التأثير عليها بأعمال البشر، فإنه يعتقد أنه إذا استطاع أن يجندها لصالحه فإنه سيحصل على ما يريد، ويستطيع أن يقضى على أعدائه..

وعلى العكس فإن العدو الذى يكتسب السيطرة عليها، يستطيع أن يزعجه ويدمره...

وهكذا فإن الإفريقى عندما يصيبه المرض، فإنه يعتقد أن روحًا أو قوة خفية - يؤثر فيها إنسان عادة - هى التى سببت إصابته بالمرض... والموت نفسه

ليس أمرًا لا مفر منه، بل إن المرء يموت لأن شخصًا آخر قرر أنه ينبغى أن يموت. . . ويجرى استخدام هذه القوى غير المنظورة بطريق السحر.

والساحر أو «رجل الجوجو» الذى يتخصص فى أعمال السحر المؤذية لديه قائمة كبيرة من الأدوات، فهو يعد السموم والمساحيق وأنواع الشراب المختلفة، وقد ينثر خطا من مسحوق سحرى حول كوخ إحدى الضحايا مثلاً لينتهى أمره، أو يقتل آخر بمجرد إشارته بقطعة من العظام السحرية.

ويحصل الساحر على عناصر سحره من كل أنواع المصادر. . . بعضها حزم من أغصان الأشجار، أو أكياس من الحصى، أو فئران مجففة، أو أحشاء الحيوان. ولما كانت الحياة البشرية هى أثمن سلعة، فلا غرو أن كان أقوى أنواع السحر يحتاج إلى دماء ولحوم بشرية!

وهكذا لا تزال طقوس الذبح مستمرة، بعضها يحدث لضمان محصول ناجح، ولا يزال أهل القرى القريبة من عاصمة ساحل العاج يقتلون الأطفال الصغار وينزعون أحشاءهم بطريقة منتظمة، ويلقون بها فى البحر عند بدء موسم صيد الأسماك.

ولعل أكثر الأسباب الشائعة للقتل فى الطقوس الدينية هو الحصول على عناصر للقرون الطبية. . . وهى قرون حيوانات تؤخذ عادة من بعض أنواع «التياتل» ثم تحشى ببعض المواد، كدهن الأسد، ودم التمساح، وسم الأفعى، ومخلب الوطواط، ومخ بشرى. . . . . وتمزج كلها بوسائل مختلفة؛ ليكون لها تأثير سحرى معين.

والإفريقى الذى تتهدده قوى الشر يلجأ إلى الطبيب الساحر «الجوجو». . . ويحاول آخرون أن يحبطوا عمل الطبيب الساحر بعمل «العراف» ولكن الأمر يكون دائمًا بطريقة عكسية. . . فسحر الطبيب واق

مفيد أبيض، فى حين أن سحر العراف أسود. . . ولهذا كان الطبيب الساحر رجلاً مهيبًا فى قبيلته تكاد هيبته تعادل هيبة زعيم القبيلة!. .

وهو فى كل الأحوال منجم وخبير فى الكشف عن السحر الأسود والقضاء عليه، وخبير فى صناعة التمائم والتعاويذ والأحجبة التى تجلب الصحة والحظ والوقاية، وفى استخدام القرون الطبية، والرقصات والأناشيد والأقنعة والتعازيم.

من هنا نجد أن السحر يقوم بتشكيل سلوك كثير من الإفريقيين[1].

* * *

*** الأرواح الشريرة عند الإفريقيين:**

بداية، نشير إلى أن العقائد الإفريقية تقوم على القوة والحيوية والحركة. . وأعظم هذه القوى جميعًا. . . قوى الخالق الذى يمنح الناس الخير والرزق والمطر والحياة.

والحياة على الأرض ـ فى عقائد الإفريقيين ـ هبة من الخالق، وهى تستحق شكر الإنسان برغم ما يعانيه من عذاب وشقاء فوق الأرض من الأرواح الشريرة.

والخالق الأعظم هو الخير. . . والأرواح الشريرة هى الشيطان. . والجدير بالذكر أن معظم الإفريقيين لا يعرفون كلمة الشيطان، ولكنهم يعرفون «الأرواح الشريرة» رمز الشر. . . ورمز الكراهية. . . ورمز الرذيلة والقسوة. . . وكثيرًا ما يكون «الثعبان». . . رمزًا للشر، كما يكون رمزًا للقوة والخلود. إنه فى تصور الإفريقيين مخلوق غامض ومخيف ورهيب. . . ويقال إنه المخلوق الذى عرف الرجل والمرأة أسرار الخليقة.

(١) مجلة المختار «ريدرزدايجست عدد نوفمبر ١٩٦١ (بتصرف).

obeikandl.com

وقد جاء الاعتقاد بأن الثعبان رمز للقوة والخلود من أسطورة تقول:

«إن أول أسرة فى الوجود كانت تتكون من رجل وامرأة وطفل... قد وعدها الخالق الأعظم بأن تحيا خالدة إلى الأبد، وذلك بأن يهب لها جلودًا جديدة يلبسونها كلما بليت جلودهم... وتنفيذًا لهذا الوعد وضع الخالق كمية كبيرة من الجلود الجديدة فى صُرة وأعطاها لكلب ليوصلها للأسرة.

وفى الطريق التقى الكلب بكلاب تتناول طعام العشاء، فتوقف ووضع الصرة على الأرض ليشارك الكلاب فى عشائهم... وفى الظلام تسلل ثعبان وسرق الصرة بما فيها من جلود... ومنذ ذلك اليوم تعيش الثعابين بجلود جديدة تغيرها كل عام!!».

ومن هنا يشعر الإفريقى تجاه الثعبان بأنه مخلوق غامض مخيف رهيب، كما ينظر الإفريقيون إلى البحر على أنه مصدر للأرواح الشريرة، فمن البحر جاء الشيطان الأبيض الذى استعمر الأرض والناس.

ومن البحر أيضًا جاء تجار يشحنون النساء والرجال فى سفنهم ليبيعوهم على الشاطئ الاخر من البحر فى سوق العبيد[1].

* * *

*** تعدد الأزواج:**

وهو نظام يباح بمقتضاه لجماعة من الرجال أن يشتركوا فى زوجة واحدة، فتكون حقا مشاعًا بينهم... وقد أخذ بهذا النظام عدد كبير من الشعوب البدائية والمتحضرة... وهناك ثلاث صور لهذا النظام من الزواج:

(١) الشيطان عند الإفريقيين: عبد العزيز صادق «بحث منشور بمجلة الهلال عدد مايو ١٩٧٤» (بتصرف).

١ ـ الصورة الأولى: أن تكون هناك رابطة قوية بين الأزواج المشتركين فى زوجة واحدة، فلا يُباح هذا التعدد إلا إذا توافرت هذه الرابطة، وفى الحدود التى تقرها النظم والتقاليد. . . ففى كثير من المناطق الواقعة فى جنوب الهند وعلى حدودها الشمالية كان يباح للإخوة أن يشتركوا فى زوجة واحدة، ولا يزال هذا النظام متبعًا إلى الوقت الحاضر لدى كثير من القبائل الجبلية على حدود الهند الشمالية، وخاصة لدى قبائل «جوانسواريس».

وقد جرت العادة لديهم أن يتزوج الأخ الأكبر فتصبح زوجته زوجة لجميع إخوته، وإذا لم يكن للشاب إخوة فإنه قلما يجد زوجة. . وتتمتع المرأة بإخلاص أزواجها جميعًا، وينسب إليهم جميع الأولاد. . ولكل زوج منهم وظيفة، فيقول الابن مثلاً: أبى الذى يدير شئون البيت. . . وأبى الذى يرعى الأغنام. . . وهكذا.

وفى عشائر «الريدى» الهندية جرت العادة أن تتزوج المرأة بين السادسة عشرة والعشرين من عمرها بطفل فى سن الخامسة. . ويعتبر هذا الطفل زوجها الشرعى النظرى، ولكن يجب أن يكون لها بجانبه زوج عملى، وهو عم الطفل أو ابن عمه، أو أبوه نفسه أحيانًا.

وجميع من تأتى المرأة به من الأولاد يلحق نسبهم بزوجها الشرعى وحده، حتى إذا بلغ هذا الغلام أشده تكون المرأة قد وهن العظم منها وأدركتها الشيخوخة، فيتصل بإحدى زوجات أولاده أو أقاربه الصغار ويصبح زوجها العملى إلى جانب زوجها الشرعى، ويقوم بالدور نفسه الذى قام به غيره مع زوجته وهو صغير. . . وهكذا دواليك.

وفى عشائر «النير» فى الهند، يكون للمرأة عادة خمسة أزواج أو ستة، وقد يصل هذا العدد أحيانًا إلى عشرة أو اثنى عشر، بل قد يباح لها أحيانًا

أن تقترن بأى عدد تشاء من الرجال، ولكن يشترط فى الأزواج أن يكونوا أقرباء بعضهم لبعض ينتمون إلى عشيرة واحدة. . . وقد جرت العادة أن تبيت مع كل واحد منهم نحو عشر ليال، وأن يتناولوا معها أدوارهم بالترتيب.

وفى بعض قبائل العرب فى الجاهلية كان الولد يشارك أباه فى زوجته (زوجة الأب) وكانوا يسمون هذا الولد «الضيزن»[1].

٢ ـ والصورة الثانية: لنظام تعدد الأزواج أن يُباح هذا التعدد بدون تقيد بوجود رابطة قرابة بين الأزواج. . . ويكون للمرأة زوج أصيل تعتبر ملكًا له، ويُنسب إليه وحده من تأتى به من الأولاد، ولكن يباح أن يكون لها بجانبه أزواج غير أصليين، لهم حق معاشرتها بدون أن يكون لهم الحق فى أن ينسب إليهم أحد ممن تأتى به. . . وهذا النظام موجود لدى عشائر «التودا» بجنوبى الهند وعشائر «المازاييس» «والياهيما» بإفريقيا.

وقد عرف هذا النظام عند قبائل العرب فى الجاهلية التى كانت تأخذ بهذا الشكل من الزواج[2]. . وأنه ما كان يشترط أن توجد بينهم رابطة قرابة، وأن معاشرتهم للزوجة لم تكن على صورة دائمة، ولم تكن لها مقومات الحياة العائلية إلا أنها كانت توجب على الرجال بعض التزامات فيما يتعلق بنسب الأولاد، فكان للمرأة الخيار فى أن تلحق ولدها بأى رجل منهم فيتصل نسبه به.

---

(١) غرائب النظم والتقاليد والعادات: د. على عبد الواحد وافى (بتصرف).

(٢) وإلى هذا تشير السيدة عائشة أم المؤمنين فى حديثها عن النكاح فى الجاهلية إذ تقول: «كان يجتمع الرهط دون العشرة، فيدخلون على المرأة فيصيبونها، فإذا حملت ووضعت ترسل إليهم، فلا يستطيع واحد منهم أن يمتنع، وإذا اجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمى من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع عنه الرجل».

٣ ـ والصورة الثالثة: أن يكون للمرأة زوج واحد، ولكن يسمح لغيره أن يتصل بها فترة ما محددة قبل زفافها أو بعده فى ظروف معينة، وبقيود خاصة، بدون أن يكون لهذا الدخيل صفة الزوج ولا حقوقه.

فمن ذلك نكاح «الاستبضاع».. الذى كان شائعًا عند قدماء اليونان وعند العرب فى الجاهلية وغيرهم.

ونكاح الاستبضاع أن يَدْعُوَ الزوج زوجته للاتصال جنسيا برجل عظيم لتأتى له بأولاد نجباء ينسبون إلى الزوج من الناحية الشرعية ويحملون اسمه، ويعتبرون من أولاده، ولكن تتوافر فيهم بالوراثة صفات الرجل العظيم الذى جاءوا من مائه... والذى كان مجرد أداة استخدمت فى إنجابهم...

وقد أجاز التشريع اليونانى القديم الذى وضعه «ليكوغورس» هذا النظام، فأباح للأزواج أن يرسلوا زوجاتهم لعظماء الرجال؛ ليستبضعوا منهم، ويحصلوا بذلك على أولاد نجباء.

وحث «ليكوغورس» الشيوخ من الأزواج أن يبحث كل منهم لزوجته الشابة، عن فتى كريم الخلق لتستمتع به. وعد هذا العمل من أعمال الفضيلة والإيثار، ومن الأعمال الوطنية الجليلة، إذ يحقق للبلاد نسلاً قويا.

وقد كان هذا النظام موجوداً عند العرب فى الجاهلية[1].. الذى كان يتم برغبة الزوج، بل بأمره.

وفى بعض المجتمعات كان يباح للمرأة فى حالة غيبة زوجها أن تعيش مع

---

(١) فقد جاء فى حديث عائشة عن النكاح فى الجاهلية ما يدل على أن هذا النظام كان متبعًا عند العرب قبل الإسلام إذا تقول: «كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع».

رجل تختاره لتجد فى كنفه ما يلزم لها من رعاية وحماية، ولكنها تبقى من الناحية الشرعية على ذمة زوجها الغائب.

. . وقد أجازت قوانين «مانو»[1] للمرأة أن تتصل جنسيا بزوج أختها إذا كان زوجها هى عقيمًا لتأتى لزوجها بأولاد.

وفى بعض المجتمعات كان يباح للزوج أن يعير زوجته أو يؤجرها لشخص آخر، أو يقدمها لضيوفه. . وكان ينظر إلى هذا الإجراء على أنه مظهر من مظاهر تكريم الضيف والحفاوة به.

ففى بعض عشائر أستراليا الأصليين كان أى رجل يستطيع أن يستأجر امرأة صديقه للاستمتاع بها مدة ما لقاء أجر معين.

وفى أثينا كان كثير من عظماء الرجال أنفسهم يعيرون زوجاتهم لغيرهم، وقد أعار سقراط نفسه زوجته «جزانتيب» إلى «أليسياب»[2].

وتقديم الزوجة للضيف كان تقليدًا متبعًا عند كثير من الشعوب السامية وغيرها.

وفى بعض المجتمعات كان يتحتم أن يدخل على العروس قبل أن تزف إلى زوجها بعض رجال الدين أو السحر، أو ذوى السلطان، أو طائفة من ضيوف العروس، أو غيرهم. . . ففى بعض العشائر الأسترالية جرت التقاليد أن يتصل بالعروس قبل زفافها إلى زوجها بعض أفراد معينين من رجال عشيرتها، وقد حدد العُرف طبقات الأفراد الذين يُباح لهم ذلك، ونظم اتصالهم بالعروس، فجعل لكل منهم دورًا لايستقدمه ولا يستأخره.

(١) وهى الشريعة التى تقوم عليها الديانة البرهمية فى الهند.
(٢) المرجع السابق.

وقد جرت العادة فى «مالابار» بالهند أن تقضى عروس الملك بعد أن يتم عقد زواجها به الليالى الثلاث الأولى مع كبير رجال الدين. وبعد انقضاء هذه المدة يمنحه الملك خمسين قطعة من الذهب مكافأة له على ما قام به. . . وفى جزر «البليار» كانت العروس تقدم نفسها فى الليلة الأولى من زفافها لجميع من يحضر عرسها من المدعوين من الرجال.

وفى قبائل «الكوشنشين» بمنطقة الهند الصينية لا يجوز للعروس أن تزف إلى زوجها إلا بعد أن تعرض على الملك ويتصل بها إذا شاء.

ومن ذلك أيضًا أن التقاليد فى قبائل «الكيبسيجيس» فى كينيا تبيح للفتاة قبل أن تبلغ سن الالتحاق[1] أن تتخذ لها عشيقاً من بين أفراد عشيرتها. . . ويأوى إليها هذا العشيق فى مكان خاص يسمى «سينجروانا»، فيقضيان معًا سواد الليل عاريين متحاضنين، ويسمح لعشيقها أن يتصل بها فى أوضاع خاصة متعارف عليها بدون أن يفض بكارتها. . . فإذا تزوج العشيق عشيقته ـ وهذا ما يندر ـ انقطعت صلته بغيرها.

وإذا حدث أن تجاوز شاب فى صلته بعشيقته الأوضاع المتعارف عليها فحملت منه، فالمجتمع ينكر ذلك، ولكن لا يحول بينها وبين الزواج حتى وهى فى حالة حمل، بل إن الزوج ليغتبط كثيراً إذا ظهر له أن عروسه قد زفت إليه وهى حامل. . . ويعتبر المولود ابناً للزوج الشرعى لا للعشيق[2].

ومن الملاحظ أن نظام تعدد الأزواج للزوجة الواحدة فى صوره المختلفة ينتشر فى الشعوب التى يزيد فيها عدد الرجال على عدد النساء، إلا أن هذا ليس سببًا كافياً إلا إذا انضمت إليه عوامل اجتماعية أخرى تمثلت فى معتقدات غريبة يعتنقونها.

---

(١) وهى السن التى تلتحق فيها الفتاة بالجمعية الدينية بعد عدة طقوس معقدة.

(2) Reristiany: Le Vie et le Droit de Kipsigis de keny.

وغنى عن البيان أن هذا النظام يؤدى إلى ضعف دافع الغيرة على النساء... وهذا هو ما لاحظه الباحثون فى الشعوب البدائية التى تسير عليه.

* * *

*** تعدد الأزواج والزوجات معًا:**

ويباح بمقتضاه لجماعة معينة من الرجال أن يعاشروا عددًا معينًا من النساء معاشرة جنسية، على أن يكُنَّ حقا مشاعًا بينهم.

ففى بعض قبائل «التبت» «والهملايا»... كان يجوز لطائفة من الرجال أن يتزوجوا طائفة من النساء على طريق الشيوع.

كما يروى لنا التاريخ[1] أن بعض القبائل العربية وغيرها من الشعوب البدوية كانت تسير على نظام تعدد الأزواج والزوجات معًا.

وفى بعض القبائل الآسيوية فى جنوب شرق آسيا، كان الإخوة يعاشرون أخواتهم معاشرة الأزواج..

كما كان يجتمع أحيانًا فى منزل واحد نحو عشرين رجلاً متزوجين، فتصبح زوجاتهم مشاعات بينهم..

وقد ظهر هذا النظام عند البدائيين فى قبائل جنوب شرق آسيا وأستراليا نتيجة لتجمع عدد من الأسرات فى منزل واحد، أو فى كوخ واحد... وأن كل امرأة من النساء كانت تعتبر زوجة لرجل معين، مع إباحة الاتصال جنسيا بغيره من المقيمين معه فى المنزل!

---

(١) الشعوب السامية البدوية: المؤرخ اليونانى «سترابون».

ومن أهم مظاهر هذا النظام ما يسمى «بالزواج الأخوى» وهو نظام يبيح للإخوة أن يتزوجوا عددًا من النساء على أن يكنَّ حقا مشاعًا بينهم.

وهذا النظام على نوعين:

نوع مطلق يُباح بمقتضاه للإخوة أن يتزوجوا عددًا من النساء، سواءً أكُنَّ قريبات بعضهن لبعض أم غير قريبات.

ونوع مقيد يباح بمقتضاه للإخوة من أسرة معينة أن يتزوجوا بأخوات من أسرة أخرى، على أن يكنَّ مشاعات فيما بينهم.

وهذا النظام بنوعيه كان منتشرًا فى بعض الشعوب البدائية، وخصوصًا فى بعض مناطق الهند... فعند بعض العشائر كان يُباح للإخوة الذكور أن يتخذوا زوجات مشتركات بينهم، سواء أكنَّ قريبات بعضهن لبعض أم غير قريبات.

وفى بعض عشائر «التودا» بجنوب الهند كانت الفتاة إذا تزوجت رجلاً أصبحت بحكم هذا الزواج نفسه زوجة لجميع إخوته الأصغر منه بمجرد أن يبلغ كل منهم سن البلوغ.. ويصبح هؤلاء الإخوة كذلك أزواجًا لأخوات المرأة الصغريات بمجرد أن يبلغن سن المحيض... وينسب أول مولود لكل امرأة منهن للأخ الأكبر... والمولود الثانى لمن يليه... وهكذا بحسب ترتيب السن.

.... وفى عشائر «التوتيار» بالهند... يشترك الإخوة وأعمامهم فى زوجات مشاعات بينهم.

وفى «سيلان» كان ينتشر نظام تعدد الزوجات والأزواج معًا عند الطبقات الموسرة بوجه خاص. ويكون الأزواج فى الغالب إخوة، وينسب جميع الأولاد لجميع الإخوة بدون تفرقة بينهم.

ومن الملاحظ أن نظام «الزواج الأخوى» له آثار فى نظم الزواج المتبعة فى كثير من الشعوب المتحضرة، ومن ذلك:

* ما يسمى بـ «الليفيرا».. أى الزواج بأرملة الأخ... وهو نظام يتحتم أو يحسن أو يجوز بمقتضاه للأخ الأصغر أو الأكبر أن يتزوج أرملة أخيه المتوفى... وهذا النظام منتشر فى كثير من الأمم الإنسانية... كما كان سائداً فى بعض عشائر العرب فى الجاهلية[1].

والثانى ما يسمى «سوروراً»، أى الزواج بأخت الزوجة، وهو نظام يتحتم أو يحسن أو يجوز بمقتضاه لزوج الأخت الكبرى أو المتوفاة أن يتزوج إحدى أخواتها الصغريات بعد وفاتها، أو يجمعهن معًا فى زواج واحد... وهذا النظام منتشر فى كثير من الشعوب البدائية وغيرها.

* * *

* **الشيوعية الجنسية:**

وهو نظام يكون فيه جميع النساء فى مجتمع ما حقا مشاعًا لجميع رجاله... وجميع رجاله حقا مشاعًا لجميع نسائه بدون تقيد بنظم الزواج المعروف.

ومن ذلك ما لوحظ عند بعض الشعوب البدائية من إباحية فى العلاقات الجنسية بين غير المتزوجين من الرجال والنساء..... وما لوحظ عند بعضها من إباحية فى هذه العلاقات من قبل الزواج أو بعده.

فعند قبائل «البارى».. «والكنياما» فى شرق إفريقيا.. لا ينظر إلى الاتصال الجنسى بفتاة غير متزوجة على أنه عمل شائن أو منافٍ للخلق

(١) فقد روى عنهم أنه إذا مات أحدهم قال وليه ـ وربما كان أخاه أو ابن عمه ـ أنا أحق بامرأته، فينقلها إلى داره، ثم إن شاء استبقاها لنفسه، وإن شاء زَوَّجَها وذهب بمهرها... وقد قضى الإسلام على هذا النظام وقطع أسباب الأخذ به، ومع ذلك لا تزال له فى الوقت الحاضر آثار فى البلاد العربية وغيرها.

obeikandl.com

الكريم. . . بل إن حمل الفتاة سِفاحًا قبل زواجها لا ينقص شيئًا من قيمتها ولا من سمعتها، ولا ينالها من جراء ذلك عقاب أو لوم أو ازدراء!

ولا تجد عشائر «الوانيو» أية غضاضة فى أن يكون للفتاة غير المتزوجة عشيق. . . وكثيرًا ما تقضى فتياتهم الليل كله عند عشاقهن، ولا يعدن إلى منازلهن إلاَّ فى الصباح، فلا يجدن من أفراد أسرتهن غضبًا أو نفورًا.

وفى عشائر «الواديجو» يندر أن تزف فتاة إلى زوجها وهى بكر، حيث يعتبر ذلك لديهم شيئًا مخجلاً أن تظل الفتاة محتفظة ببكارتها.

وفى عشائر «الباكونجو» يُقاس شرف المرأة وتقاس مكانتها بمبلغ الرغبة فيها، وما يعرضه الراغبون فى شرائها أو الزواج بها.

. . . وفى معظم مناطق إفريقيا الاستوائية لا يحظر الاتصال بالفتيات قبل بلوغهن، بل يندر أن تصل لديهم فتاة إلى سن الخامسة بدون أن تكون قد افتضت بكارتها.

وفى قبائل «الكفرين» بجنوب شرق إفريقيا لا توقع عقوبة ما على الاتصال بفتاة بكر، أو معاشرة امرأة غير متزوجة، ولا ينظر إلى مقترفى هذه المعاشرة غير الشرعية نظرة تحقير ولا ازدراء.

وفى جزيرة «مدغشقر» لا يعد الزنى بغير المتزوجات ومن غير المتزوجين من الرذائل. . حيث لا تجب العفة على الرجل أو المرأة إلا بعد الزواج!

وفى جزر «التونجا» يباح لغير المتزوجة من النساء أن تتخذ من العشاق من تشاء بدون تقيد بعدد، وإن كان من المخجل لديهم أن تكثر المرأة من تغييرها لعشاقها.

وفى جزيرة «سان كريستوفال» وفى الجزر المجاورة لها. . يُباح للفتاة فى خلال سنتين أو ثلاث سنين بعد بلوغها سن المحيض أن تتصل بمن تشاء من الفتيان. . وكثيراً ما تتصل الفتاة لديهم في أثناء هذه الفترة بمعظم فتيان قريتها.

ولدى عشائر «الأنجامى ناجاس» حيث يعد تقصير الضفائر أمارة على البكارة، وتخجل الفتيات من أن تظل ضفائرهن قصيرة أمدًا طويلاً، فيعملن على أن يأتين ما يبيح لهن إطالة ضفائرهن. ولا بأس أن يحملن من اتصالاتهن هذه. . . بل إن الزوج فى هذه العشائر ليحرص على ألاَّ تزف إليه عروسه إلا وقد أقامت الدليل العملى من قبل على أنها ليست عقيمًا. . . والعفة عند هذه العشائر لا تكون إلا بعد الزواج!

وفى عشائر «الإسكيمو» لا يُقام لديهم وزن لما يسمى بالعفة، فاتصال رجل متزوج أو غير متزوج بامرأة متزوجة من غيره أو غير ذات زوج. . . أو اتصال الذكور من الأطفال بإناثهم اتصالاً جنسيا. . كل ذلك يعد فى نظرهم من قبيل اللهو المباح.

وفى بعض مناطق الهند يباح للأرملة، أو للزوجة التى يضارها زوجها أن تتصل بمن تشاء، على شرط أن تقدم قبل ذلك أضحية لأحد الآلهة فى معابد «تولافا».

وفى جزر «الملايو» ولدى كثير من العشائر غير المتحضرة فى الهند والصين ـ لا يعد اتصال الرجال غير المتزوجين بالنساء غير المتزوجات خطيئة أو عيبًا.

وفى بعض القبائل البدائية يُباح فى بعض الأعياد والحفلات الدينية والوطنية الاتصال الجنسى بين الرجال والنساء بدون قيد ولا شرط. . . ففى عشائر «السونتال» بالهند مثلا جرت العادة أن يعقد جميع الراغبين فى الزواج

عقودهم مرة واحدة كل عام فى أيام معلومات، على أن يسبق هذه الأيام ستة أيام يباح فيها لجميع الرجال الاتصال جنسيا بجميع النساء.

ومما هو جدير بالذكر أن الشعوب التى كانت تسير على نظام الشيوعية الجنسية المطلقة كانت تعد فى الوقت ذاته الزواج بين امرأة ورجل هو الوضع العادى السوى... ولكن كل ما هنالك أن يباح لديها فى خارج نطاق الزوجية اتصال الرجال بالنساء، حيث لا يوجد ما يمنع ذلك، بل يوجد ما يحبذ الشيوعية الجنسية المطلقة.

* * *

*** الخلافة علي الأرامل أو وراثة النساء[1]:**

يجرى العرف فى كثير من المجتمعات القبلية المعاصرة بأنه إذا مات رجل عن زوجة أو زوجات خلفه عليهن بعض أقاربه.

ويحدد العُرف فى كل قبيلة الأقارب الذين يقع عليهم واجب معاشرة الأرملة، والأرملة التى تخضع لهذا التقليد، ومدى حريتها فى اختيار عشيرها، وعلاقة العشير بالأرملة، ووضع الأولاد المولودين من هذه العلاقة.

والقاعدة المتعارف عليها أن أولى الناس بالخلافة على أرملة الرجل هو أقرب أقاربه.

وفى المجتمعات الأبوية يأتى فى مقدمة الأقارب الذين لهم هذا الحق أخو الميت... غير أن الأعراف تختلف فى تحديد الأخ الأَوْلى بالخلافة، ففى

(١) يقصد بالخلافة على الأرامل ذلك التقليد الذى يقضى بأن يخلف الرجل على أرملته أحد أقاربه، وهو تقليد كان شائعاً فى المجتمعات القديمة، وما زال شائعاً فى المجتمعات القبلية المعاصرة... [من بحث للدكتور محمود سلام زناتى منشور بمجلة العربى، فى عددها الصادر فى يناير ١٩٧٤].

بعضها يفضل الأخ الأكبر للزوج الميت على الأخ الأصغر، وفى بعضها الآخر يحدث العكس. . . وفى بعضها يفضل الأخ الشقيق على الأخ غير الشقيق، وفى بعضها الآخر يفضل الثانى على الأول.

وفى بعض المجتمعات يسمح العرف للابن بالخلافة على أرملة أبيه أو أرامله فيما عدا أمه، بل إن الابن فى هذه المجتمعات الأخيرة يتمتع بحق الأولوية على غيره من الأقارب.

وفى المجتمعات الأمية[1] يأتى فى مقدمة الأقارب الذين لهم الحق فى الخلافة على الأرملة ـ أخو الميت لأمه وابن أخته.

هذا، وتتفق المجتمعات القبلية فى عدم إخضاع الأرملة التى جاوزت سن الحمل للخلافة، ذلك أن أحد أهدافها الرئيسية هو تمكين الأرملة من الاستمرار فى إنجاب أولاد.

ويترك لمثل هذه الأرملة حرية اختيار الجهة التى تقيم فيها، فلها أن تواصل الإقامة فى بيت زوجها، ولها أن تقيم فى بيت ابن لها، بل من حقها أن تعود إلى أهلها. . . وكذلك لا تُخْضِع بعض المجتمعات لهذا التقليد الأرملة التى لها أولاد من زوجها الميت.

وتتمتع الأرملة فى كثير من المجتمعات القبلية بالحق فى قبول الخلافة أو رفضها، حيث لها الحق فى أن تستمر فى الحياة مع أهل زوجها وأن تقبل أحدهم عشيراً لها، ولها ـ إذا شاءت ـ العودة إلى أهلها والزواج من جديد.

وفى هذه الحالة الأخيرة يلتزم أهلها برد ما دفع من مهر بمناسبة زواجها. وبذا تنحل الرابطة الزوجية التى كانت تربط بين الأرملة وزوجها.

وفى مجتمعات أخرى لا تتمتع الأرملة بحرية الاختيار، حيث تكون الخلافة على الأرامل نظامًا إجباريا أو شبه إجبارى.

---

(١) أى التى تقابل المجتمعات الأبوية.

كذلك تتمتع الأرملة فى كثير من القبائل بحرية اختيار القريب الذى تعاشره. . . كما قد يجرى العرف بتمكين الأرملة من الإعراب عن رغبتها فى اختيار قريب معين عن طريق حفلة رسمية، أو إجراء شكلى.

فلدى مجتمعات «التسوانا» بجنوب إفريقيا على سبيل المثال، كانت تقام ـ بعد مضى بعض الوقت على انتهاء الحداد ـ وليمة صغيرة فى بيت الأرملة كان يحضرها أقارب الزوج، وتجلس الأرملة وسط الفناء إلى جوار قِدْرٍ كبيرة مملوءة جعة، ويتقدم الأخ التالى للزوج الميت إلى القِدْر ويرفع عنها غطاءها ويضعه إلى جانبه، فإذا كانت الأرملة لا ترغب فى معاشرة هذا الرجل كانت تعيد الغطاء إلى مكانه، وعندئذ يتقدم الرجل التالى فى درجة القرابة ويؤدى نفس الفعل، ويستمر ذلك حتى تترك الأرملة الغطاء باقياً فى موضعه وتبدأ فى تقديم الجعة إلى الحاضرين، فيكون معنى ذلك أنها قبلت هذا الرجل بالذات.

وفى بعض المجتمعات يتم اختيار خلف الزوج بواسطة شيخ أو شيوخ جماعته، وقد يسمح للأرملة بالاعتراض على من اختير لها، ويكون من حقها عندئذ أن تختار آخر بدلا منه، وقد لا يكون للأرملة سوى الرضوخ لاختيارهم.

وفى مجتمعات أخرى يعين الزوج نفسه الرجل الذى يخلفه على أرملته، ويحدث هذا التعيين عادة عندما يشعر الزوج بدنو أجله، ويكون ذلك بمثابة وصية يوصي بها. . . ويكون هذا الاختيار ـ فى الأعم الأغلب ـ موضع احترام، سواء من قبل الأرملة أم من قبل الأقارب.

أما بالنسبة للرابطة التى تقوم بين الأرملة وقريب زوجها، فهى لا تعد فى التقاليد القبلية زواجًا جديدًا، ذلك أن الأرملة تعد ما زالت زوجة الرجل المتوفى الذى دفع من أجلها مهرًا؛ ولهذا فإن هذه الرابطة لا توصف بأنها زواج، ويترتب على ذلك أن قريب الزوج لا يدفع إلى أهل الأرملة مهرًا

جديدًا، كما أن الأولاد الذين يولدون من علاقته الزوجية بالأرملة لا يعتبرون أولاده، وإنما يعتبرون أولاد الزوج الميت.

هذا، وقد ساهم فى إيجاد هذا التقليد[1] عدة اعتبارات من أهمها الرغبة فى توفير الحماية والرعاية للأرملة وأولادها... والرغبة فى الحصول على ذرية وبأكبر قدر مستطاع، حيث إن المجتمع القبلى يعد من العبث أن تكون هناك امرأة شابة قادرة على الإنجاب وتبقى طاقة إنجابها معطلة.

فضلاً عما تقتضيه الضرورة من وجود ذرية للميت تقوم بتقديم القرابين لروحه فى المناسبات المختلفة.

* * *

*** حجاب الفتاة عند بلوغها لدى بعض الشعوب:**

لدى «الهوتنتوت» وهم قبيلة رعوية فى جنوب إفريقيا، بمجرد أن تأتى الفتاة حيضتها الأولى[2]، تبلغ الأمر فى الحال إلى صديقاتها، أو إلى إحدى قريباتها الكبريات سنا... وعن هذا الطريق يصل الخبر إلى الأم، وعندئذ تدعو الأم أخواتها المتزوجات، أو زوجات إخوتها إلى عمل سياج من الحصير داخل الكوخ فى الجزء الخلفى منه، ثم تذهب لإحضار امرأة قد جاوزت سن الحمل، وكانت من قبل ولودًا... وتحمل المرأة الفتاة على ظهرها وتذهب بها إلى تلك السقيفة، وتتولى رعايتها طيلة بقائها بها.

ولدى «الكورونجو» إحدى قبائل «النوبا» فى السودان... يجرى العُرف بحجاب الفتاة عند حَيْضَتها الأولى، ويُطلق على هذا الحجاب عبارة «دخول الشونة»، وهو حجاب بسيط فى البداية، ثم يأخذ شكل الحجاب الكثيف...

---

(١) عندما جاء الإسلام حرم هذا التقليد المتوارث بين الناس فى القبائل العربية، وعفا عمَّا كان سلف منهم فى جاهليتهم، وذلك بعد نزول قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا».

(٢) هو ما يحدث عادة بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة.

وقد يستمر حجاب الفتاة لأكثر من سنة. . . وإذا كانت للفتاة أخت أو ابنة عم دخلت معها «الشونة» لمجرد أن تكون أنيسًا لها.

ويمتنع على الفتاة التى دخلت الشونة ـ طيلة فترة الحجاب ـ القيام بأى عمل، وليس لها أن تغادر البيت أثناء النهار.

وخلال الشهور الثلاثة الأولى يمكنها أن تستقبل زائرين. . . أما أثناء فترة الحجاب المشدد الكثيف فيمتنع على الغرباء والأقارب حديثى السن ـ ذكورًا كانوا أم إناثًا ـ رؤية الفتاة، ولا يستطيع رؤيتها من الذكور سوى الأب والخال. . . وإذا حدث أن شاهد الفتاة أحد الغرباء فسوف يترتب على ذلك أن الفتاة لن تسمن[1].

* ولدى قبائل «الأيبيو» فى جنوب نيجيريا. . . تذهب العروس فور حيضتها الأولى إلى بيت التسمين، وتظل فيه لفترة تتراوح بين ثلاثة شهور وثلاث سنوات، تبعاً لمدى ثراء أبيها أو خطيبها الذى يقوم عادة بتقديم الطعام اللازم لها خلال هذه الفترة، وحسب العادة المتبعة لدى القبيلة التى تنتمى إليها. . . ويتم الزواج بعد انتهاء فترة الاحتجاب مباشرة، وبعد هدية خاصة يقدمها الخاطب[2].

* ولدى قبائل «النيانكولى» فى أوغندا. . . . يبدأ إعداد الفتاة للزواج من الثامنة أو التاسعة من عمرها. . . فمنذ هذا الوقت يراقب الوالدان ـ وبخاصة الأم ـ ابنتهما باهتمام، ويحولان بينها والاتصال بأى رجل. . . وكان عليها أن تحيا حياة دعة واستقرار، وكانت تحتسى مقادير كبيرة من اللبن، كما كانت تأكل كثيراً من اللحم.

وبعد انقضاء سنة على هذا الاحتجاب، كانت الفتاة تفقد كل رغبة فى

(١) ماذا على الفتاة أن تفعله عند بلوغها: د. محمود سلام زناتى (المجلة العربية يونيو ١٩٨٦).
(٢) المرجع السابق.

القيام بأى وجه من وجوه النشاط، بل كانت تفقد القدرة على السير، وكلما ازدادت سمنة ازدادت جمالاً فى نظرهم، وكانت هيئتها تتعارض تعارضًا صارخًا مع هيئة الرجال الذين كانوا يتميزون بقوة الجسم وحُسن التكوين.

* وعند قبائل «كيرالا» فى الهند... توجد قيود مفروضة على الفتيات تكشف عن الرعب والفزع، نحو دم الحيض... فعند ظهور الحيض للمرة الأولى يحظر على الأنثى أن تقع عينها على ذكر، من أجل سلامتها أولاً، وبسبب ما يمكن أن يناله من أذى ثانياً، ولتفادى كل خطر كانوا يعزلون الأنثى فى سقيفة بعيدة عن الكوخ.

هذا، وفى كثير من المجتمعات القبلية يجرى العُرف باتباع شعائر وطقوس معينة تستهدف إعلام أفراد الجماعة أن الفتى أو الفتاة قد انتقل من طور الصبا إلى طور الرجولة أو الأنوثة الكاملة... وبانتهاء هذه الشعائر يصبح للفتى أو الفتاة كل الحقوق التى لأفراد جنسه، وفى مقدمتها الحق فى الزواج. فحجاب الفتاة يشكل إذن لدى المجتمعات التى تمارسه نوعًا من شعائر الانتقال، وهو يستهدف ـ فضلاً عن ذلك ـ إعداد الفتاة للزواج بتسمينها، ولن يتأتى هذا التسمين إلا بتقييد حريتها فى الحركة، وذلك بفرض الحجاب عليها مدة من الزمن.

* * *

* عند قبائل «الباجندا» فى أوغندا... يحرم على الأم دخول بيت ابنتها المتزوجة، أو الحديث مع زوج ابنتها. وإذا تقابلا فى الطريق وجب عليها أن تنتحى جانبًا، وأن تغطى رأسها بثوبها، وإذا لم يكن ثوبها كافيًا وجب عليها أن تجلس القرفصاء، وأن تخفى عينيها وجزءًا من وجهها براحتيها.

*** النزعة العنصرية فى الزواج وغيره[1]:**

فى بعض المجتمعات الحديثة حيث تسود النزعة العنصرية، يتخذ تحريم

(١) المرجع السابق (بتصرف).

الزواج بين أفراد العناصر الأخرى مظهراً من أهم مظاهر هذه النزعة، ويهدف تحريم الزواج فى هـذه الأحوال إلى الاحتفاظ بالنقاء المزعوم للعنصر المسيطر.

فقد سادت مثلاً فى ألمانيا ـ فى عهد الرايخ الثالث[1] فكرة سمو الجنس الألمانى على غيره من الأجناس، ورغبة فى الاحتفاظ لهذا الجنس بنقاوته قضى القانون بتحريم الزواج إذا كان من المتوقع أن تعرض الذرية الناجمة عنه الدم الألمانى للخطر.

ومن تطبيقات ذلك تحريم الزواج بين الألمان وبين الأشخاص الذين ينتمون إلى الجنس اليهودى[2].

وفى الولايات المتحدة الأمريكية لا تزال كثير من الولايات تحرم قوانينها الزواج المختلط بين البيض وغيرهم... ففى الولايات الجنوبية ـ حيث يكثر الزنوج ـ تحرم القوانين الزواج بينهم وبين البيض.

وتتفاوت قوانين الولايات فى تحديدها المقصود بالزنجى، ويذهب بعضها إلى حد اعتبار الشخص زنجياً إذا كان دمه يحتوى على جزء من ستة عشر جزءاً من الدم الزنجى... وفى الولايات الغربية حيث يكثر أبناء الجنس الأصفر من الصينيين واليابانيين تحرم القوانين الزواج بينهم وبين البيض، فضلا عن تحريمه بين البيض والزنوج.

وفى اتحاد جنوب إفريقيا حيث تسيطر أقلية بيضاء على أغلبية سوداء صدر قانون خاص عام ١٩٤٩ بتحريم الزواج المختلط، ويقضى بحظر الزواج بين البيض وغير البيض... واعتبر الزواج المختلط الذى يتم فى الخارج بين رعايا الاتحاد باطلاً... ونص على عقوبات شديدة للطرفين المعنيين

(١) حكم هتلر.

(٢) قد زالت هذه القاعدة بالقضاء على النظام الهتلرى.

وللموظف المختص بتوثيق الزواج إذا خالف أحدهم القانون، وهو على بينة من الأمر.

ونظراً لأن الباعث على إصدار هذا القانون هو الرغبة فى الاحتفاظ بنقاوة الدم الأبيض، فإنه لم يتضمن تحريماً للزواج المختلط بين الملونين فيما بينهم[1].

كما توجد تفرقة عنصرية فى اليابان... فالكوريون الذين قضوا كل حياتهم فى اليابان مثلاً، يحتقرهم اليابانيون باعتبارهم «مواطنين من الدرجة الثانية» ويقيمون فى أحياء خاصة بهم.

وطبقة «الايتا» هيكل آخر فى نظم اليابان... وهؤلاء هم «منبوذو» اليابان، ويُقدر عددهم بثلاثة ملايين نسمة... وهم من سلالة الجلادين والجزارين وعمال الجلود، وصُناع الفخار، والحانوتية، وصانعى المظلات... وكانوا فى عهود الإقطاع لا يستطيعون مغادرة قراهم الخاصة إلا بين غروب الشمس وشروقها فقط.

...وقد ألغيت القرى المعزولة فى عام ١٨٧١، ومع ذلك فيوجد اليوم أكثر من خمسة آلاف قرية يابانية صغيرة سكناها مقصورة على طبقة «الايتا» وحدها.

وتمارس كثير من الشركات التمييز والتفرقة ضد العمال من مواليد «الايتا».. ولا يزال من المستحيل تماماً على أى فرد من طبقة «الايتا» أن يتزوج من غير طبقته.

---

(١) لم يكتف المشرع الأبيض فى اتحاد جنوب إفريقيا بتحريم الزواج المختلط، بل تدخل حتى فى مجال العلاقات الجنسية خارج الزواج، فصدر فى عام ١٩٢٧ قانون يحرم العلاقات الجنسية بين البيض والإفريقيين، وتصل العقوبة المقررة للاتصال الجنسى بين البيض وغيرهم إلى السجن سبع سنين.

ولم تغير الأموال الطائلة التى تنفقها الحكومة لرفع مرتبة طبقة «الايتا» وجهات نظر الشعب[١].

وفى الهند تقوم التفرقة العنصرية على أساس الطبقة التى هى جزء لا يتجزأ من الهندوسية المتعصبة.

ولكل طبقة مئات من الطبقات الفرعية التى تقوم على أساس من العشيرة أو الدين أو المهنة.

ويوجد خارج نظام الطبقات حوالى ستين مليوناً من المبنوذين.. وكان يُقْضَى على هؤلاء المنبوذين طوال عدة قرون بأداء الأعمال الحقيرة، كتنظيف المراحيض... ويحرم عليهم دخول معابد معينة، ولا يدخلون منزل مخدومتهم من طائفة الهندوس إلاَّ من مدخل خاص.

... وفى الحالات المتطرفة لا يستطيعون أن يتركوا ظلهم يقع على أحد البراهمة[٢]!

ويُعتبر براهمى الشمال ذو البشرة الناصعة أعلى مرتبة اجتماعية من البراهمى الداكن البشرة فى جنوب الهند[٣].

ومن التقاليد المرعية فى الولايات الجنوبية الأمريكية.. أنه لا يجوز لزنجى أن يبادر بمد يده لمصافحة رجل أبيض مهما كانت منزلته، إنما يجب أن يبدأ الأبيض بمد يده، فإن مدها ـ وهذا نادر جدا ـ فَعَلَ الزنجى..

ولا يجوز إطلاقًا أن تصافح امرأة أمريكية بيضاء شخصًا زنجيّاً، ولا يصح للزنجى ـ مهما كانت منزلته ـ أن يدخل دار الأبيض من بابها الأمامى، وإنما يدخلها من بابها الخلفى.

(١) مجلة المختار، ريدرزدايجست «يناير» ١٩٦٤ (بتصرف).
(٢) المرجع السابق.
(٣) يلاحظ أن الهند الحديثة قد ألغت طبقة «المنبوذين» بقانون، ولكن لا تزال آلاف من قرى المنبوذين قائمة موجودة.

ويجب على الزنجى أن يخلغ قفازه إذا دخل مخزناً، أو مصرفاً، أو مكتباً حكوميا.

هذا، وتمنع بعض الولايات رعاياها الزنوج من أن يسيروا على الأرصفة التى يسير عليها البيض[١].

وفى بريطانيا كثيراً ما تقوم التفرقة ضد الزنوج فى المساكن، وفى الوظائف، وفى المطاعم، والحانات فى بعض الأحيان.

والزنوج الذين يحجزون غرفًا فى الفنادق لا يجدون فى أغلب الأحيان غرفًا متاحة لهم عند وصولهم..

وغالبا ما تشترط اقتصار الشقق المفروشة على «الأوربيين فقط»، أو «غير الملونين». كما يوجد تمييز فى المصانع، حيث أصدر أصحاب الأعمال تعليماتهم إلى مكاتب العمل بعدم إرسال الزنوج أو الملونين[٢].

* * *

(١) ولكن يلاحظ أنه لا توجد تلك التفرقة فى المدارس التى تقوم الدولة بإدارتها، ربما لأن نسبة الزنوج فيها غير كبيرة عادة.

كما يلاحظ أن هذه التفرقة قد ضعفت حدتها فى الآونة الأخيرة، مما يبشر بزوالها فى المستقبل القريب.

(٢) جدير بالإشارة أن البرلمان البريطانى قد سبق أن قدم عدة مرات تشريعاً لتحريم التفرقة العنصرية، ولكنه لم يأخذ حيز التنفيذ.

• الوشم رموز وسحر وجمال :

للوشم دلائل يشير إليها، فهو عند بعض القبائل الهندية يشير إلى فترة المراهقة.. ومنها ما يمثل الأُنوثة أو الأُمومة أو الحالة الزوجية...

وهناك الوشم الذى يقصد منه التمرد على المجتمع ورفض مفاهيمه وتقاليده وقيمه.

وهناك كذلك الوشم العاطفى أو الجنسى الذى يُستعمل رقية ضد أعمال السحر، أو تعويذة ضد أعمال الشر والحسد[1].

وقد يقصد من الوشم توجيه رسالة رمزية للآخرين، لا بد من كشف رموزها لمعرفة معناها... فعلى سبيل المثال المعنى الرمزى للوشم الذى يمثل خنجرًا، خصوصاً عندما يكون مغروزاً فى قلب، أو فى جسم نمر، هو: لا تقترب منى كثيراً، فقد أكون خطراً عليك.

وعندما يرسم الرجال بعض الرسومات المعقدة فى بطونهم أو ظهورهم ويكشفون عنها فى فصل الصيف على بلاجات الشواطئ، فإنهم يقصدون توجيه رسالة معينة للنساء بقصد الاستحواذ على انتباههن وإعجابهن. هذا، وقد يُستفاد من الوشم كعملية طبية لعلاج ورم المفاصل، وعرق النسا، والخلع، وآلام الظهر[2].

(١) مثال تلك التى اشتهرت فى مصر تحت مسمى «خمسة وخميسة».

(٢) حكاية الوشم، من بحث منشور بمجلة «الشاهد» الدورية الصادرة فى يوليو ١٩٨٩.

وفى الصين يستخدم الوشم ـ منذ القدم ـ للتعبير عن سن صاحبه ومركزه الاجتماعى . . .

وقد كان شائعًا فى الماضى استخدامه كنوع من الزينة، وخصوصاً من الرجال، للفت أنظار النساء تماما، كما يلفت ذكر الطاووس الأنثى بذيله الجميل!

ولكن مع مرور الزمن تراجعت هذه العادة، ولم يعد يمارسها سوى بعض جماعات من شعب «الداى» فى إقليم يونان الجنوبى[1].

وترجع عادة «دق الوشم» فى تلك المنطقة إلى أكثر من ٢٠٠٠ عام، وكانت تُمارَس كنوع من الطقوس.

وقد كان الأهالى يعتقدون بأنهم يرتبطون ببعض أنواع الحيوانات والنباتات، فكانوا يرسمون صورها على أجسادهم اتقاءً لشرها، وحماية من أخطار الطبيعة، كما كان الوشم علامة على المركز الاجتماعى للقبيلة أو المجموعة العرقية.

وكان يرون فى «الوشم» فوائد خاصة فى الحروب؛ إذ كان يساعد على التعرف على الأفراد، وخاصة النساء اللائى يقعن أسرى بين يدى القبائل الأخرى.

كما له فوائد فى التعرف إلى سن أو مهنة الرجل من الوشم على جسده، فالصياد يرسم صور حيوانات وطيور، اعتقادًا منه أنها ستجلب صيدًا وفيرًا، والطفل الذى يُرَادُ له أن يصبح رجل دين يرسمون حول رسغه ـ وهو فى الثامنة أو التاسعة من عمره ـ الحروف الأبجدية.

كما أن الوشم معروف عند العرب منذ أزمان قديمة، ولكن الاستخدام الأكثر شيوعًا فى المنطقة العربية كان استخدام المرأة للوشم كزينة تزين بها

(١) قد سمى شعب الداى الوشم «سيمو» أو «وخز الإبرة»، لأنه كان يرسم على الجسد بواسطة الإبر، وهى عملية ما زالت تُمارس حتى اليوم من خلال فنانين: رسامين وخطاطين محترفين، وقد قسموا أنماط «الوشم» إلى عدة أنواع، ما زالت هى أيضًا تستخدم حتى اليوم.

وجهها، وبخاصة منطقة الذقن والجبهة واليدين. . . وندر أن توجد امرأة لا تتزين بالوشم، وبخاصة فى مناطق البادية والريف، إلى ما قبل سنوات معدودة.

ويلاحظ أن استخدام الوشم لم يكن مقصورًا على النساء، أو الزينة، بل استخدم أيضًا كأسلوب علاجى لبعض أوجاع العظام والمفاصل والأعصاب.

ولم يمنع الأمر من استخدام الرجال الوشم للزهو أحيانًا، كأن يزين بعضهم ساعده بصورة أسد أو فهد، أو للتفاخر بعمل قام به، أو تسجيل اسم محبوبته ليبقى منقوشًا على جسده طوال عمره[1].

ومن الجدير بالذكر أن الفتيات فى العهود الماضية كُنَّ يتَنَافَسْنَ على التزين بالوشم فيما كان يعرف بـ «دقة الوجه».

وكانت هناك نساء متخصصات فى فن تزيين النقوش على الوجه واليدين تُشَدُّ الرِّحالُ إليهن مهما بعدت المسافة، بل كان مجرد وجود فتاة لا تتزين بالوشم مثار سخرية من الفتيات الأخريات.

هذا، وقد رافقت عملية «الوشم» كزينة خرافات تقول إن الوشم يحمى من حسد الحاسدين، فضلاً عن كونه يمثل امتيازًا عشائريا، أو مكانة اجتماعية.

وبرغم أن الجيل الجديد قد توقف[2] عن استخدام الوشم ـ وخاصة بين الفتيات ـ فلا يزال بعض الشباب يقبلون عليه كوسيلة للتفاخر، أو إظهار

---

(١) مجلة الشرق الأوسط فى عددها الصادر فى ١٩٩٢/٦/٢٤ (بتصرف).

(٢) يلاحظ أن معظم الواشمين قد لجئوا إلى شتى الطرق والوسائل للتخلص من الوشم على أجسادهم بدون جدوى، فهناك من استخدام طريقة الحرق، وأدى ذلك إلى تشويه جسده بلا فائدة. =

القوة، وذلك بنقشه على سواعدهم أو صدروهم، كما لا تزال نساء كثيرات يتحلين بالوشم فى أيامنا هذه[1].

هذا، وتعد المرأة المغربية أكثر استخداماً للوشم ـ وبشكل كبير ـ ولا سيما فوق الفخذين... فى حين يغطى فى تونس الساق والفخذ وكأنه قطعة ملابس!

وجدير بالإشارة أن الوشم بالحنة على الوجه والجسم كان عادة للافتخار عند أغلب النساء من سكان القرى والمناطق الريفية.

وكانت المرأة البربرية فى المغرب ـ ولا تزال ـ تحمل فى مناطق ظاهرة من جسمها وشماً يمثل أحد حروف اللغة البربرية.

وهكذا يتضح أن الوشم بوجه عام عند المرأة العربية فى الأزمنة القديمة كان يُعَدُّ بديلاً لما يسمى الآن بـ «الماكياج» الذى يقصد منه التجمل وإثارة الإعجاب والفتنة، ولا سيما أن المساحيق والأصباغ وكل مواد الزينة التى عرفتها ما زال بعضها مستخدماً، كالحنة، والعفص، والياسمين، والكحل، والشب، وغيرها، وتغدق فى استخدامه المرأة العربية[2] الآن، وخاصة فى المناسبات الخاصة، كحفلات العرس، والختان، وسن البلوغ.

ويلاحظ أن عادة استخدام «الوشم» قد شاعت فى دول شمالى إفريقيا بصورة تثير الانتباه.

= وهناك من عمد إلى إزالة بعض أجزائه بخلع القشرة الخارجية من الجلد، الأمر الذى ترك آثارًا مؤذية وأدى إلى وجود نتوءات مكان الوشم.

وتجمع معظم النساء الواشمات اليوم على أنهن وصلن إلى مرحلة الندم؛ لأنهن سايرن فى أيامهن الموضة، ولم يخطر على بالهن أن الموضات تتغير فى هذا العالم.

(١) المرجع السابق (بتصرف).

(٢) تلك العادة ما زالت شائعة فى بعض المناطق الريفية بوجه خاص.

وأنه حتى القرن السابع الميلادى كانت تسكن دول المغرب العربى قبائل بربرية يدين بعضها بالديانة المسيحية، نظرًا للتأثير الذى كانت تمارسه الأمبراطورية الرومانية آنَ ذاك.

هذا، ويتذكر أبناء المغرب العربى إلى الآن أن بعض السكان النصارى من النساء كن ينقشن الوشم الذى يمثل رموزًا مسيحية على جباههن، غير أن هذه الظاهرة قد خفت واندثرت بعد الفتح الإسلامى.

* * *

*** أنماط غريبة للمصافحة اليدوية:**

* المصافحة اليدوية التى كادت تصبح دولية ـ كطريقة للتحية ـ لها أصول تختلف من بلد إلى آخر، فأهل شمال أوروبا وأمريكا مثلاً ينظرون فى عينى الشخص الآخر عند مصافحته ويشدون على يده بحزم وقوة.

هذا، وقد اشتهر أهالى ولاية «تكساس» الأمريكية بشكل خاص بقوة مصافحتهم.

أما فى اليابان وكوريا فيعتبر النظر فى وجه الشخص الآخر تحديقًا، وبالتالى «قلة أدب» منهياً عنها.

ولم يكتف الأمريكيون بالشد على اليد بكل حزم، بل تعداها إلى المصافحة باليدين الاثنتين، ولا يكتفى بالمصافحة العادية حيث تستعمل اليد الأخرى بعد ذلك لتشد على اليدين المتصافحتين كدليل تقارب أكبر، وهى ما تعرف بـ «المصافحة السياسية».

والطريف أن الفرنسيين لا يتركون فرصة تفوت لا يصافح الواحد منهم فيها الآخر، حتى لو كان قد لقيه منذ ساعتين فقط.

وفى حال عدم تمكن الفرنسى من مد يده اليمنى للمصافحة فإن يعطى يده اليسرى أو كوعه!

وليست المصافحة اليدوية هى طريقة التحية الوحيدة بين الشعوب عند اللقاء. . . ففى الهند وتايلاند مثلا، تكون التحية بانحناءة بسيطة مع ضم اليدين أمام الصدر.

وفى «ماليزيا» تكون بمد اليد حتى تلامس أطراف أصابعها أصابع الشخص الآخر، فتعاد إلى الصدر.

أما فى شرق إفريقيا فتكون المصافحة بين أفراد بعض القبائل بضرب كف الواحد منهم بكف الآخر، ثم القبض على الأصابع.

فى حين يحيى أفراد بعض القبائل الأخرى بعضاً ببصق الواحد منهما قرب قدمى الآخر.

وفى بلاد «الإسكيمو» يتصافحون بالضرب على رأس أو كتف الشخص الآخر. وبين قبائل «التبت» يمد الواحد منهم لسانه للآخر تحية له.

ومن تحية اللقاء إلى تحية الوداع نجد مفارقات غريبة قد تؤدى إلى سوء الفهم: ففى إيطاليا واليونان يمد المرء ذراعه إلى الأمام وكفه المبسوطة مواجهة له، ثم يضم أصابعه ويفردها مراراً. . .

ولو كان الشخص المنصرف أمريكيا لعاد فى الحال؛ لأن معظم الأمريكيين يستعملون هذه الإشارة نفسها بمعنى «تعال هنا»[1].

(١) من أطرف قصص الوداع الإنسانية قصته الممثلة السويدية «ليف أولمان» التى ذهبت كمبعوثة ـ خاصة لمنظمة «اليونيسيف» الدولية فى زيارة إلى بنجلاديش». . . فبعد زيارتها لإحدى السيدات عانقتها مودعة، فلا حظت أن السيدة قد استاءت من ذلك كثيراً. . وحين سألت عن سبب الاستياء، أجابتها السيدة ـ عبر المترجم: فى بلادى نقبل القدمين عند الوداع.
فما كان من «ليف أولمان» إلا أن انحنت وقبلت قدمى السيدة التى قامت بدورها وعانقتها بحرارة.

ولو لوَّح الأمريكى بيده مودعًا على طريقته لصديق أو ضيف من شمال أوربا، أو من أمريكا اللاتينية، لفهم الضيف أنه يقول له: «لا»... لأن الأمريكى يرفع ذراعه وكفه المبسوطة ـ التى تواجه راحتها الضيف ـ إلى أعلى ويحركهما إلى اليمين واليسار.

أما معظم الأوربيين الشماليين فيكتفون بتحريك اليد المرفوعة وحدها إلى أعلى وأسفل بدون تحريك.

ومن الإشارات الحديثة التى ظهرت فى الستينيات إشارة القبضة المرفوعة التى كانت تعنى فى بدايتها «القوة السّوداء».. وما زالت تعنى ذلك فى أنحاء كثيرة من العالم، غير أن هذه القبضة المرفوعة نفسها تعنى التحدى والتهديد إذا كانت راحة اليد باتجاه الشخص نفسه، لا باتجاه الآخرين.

وليست الإشارات وقفا على الكبار فقط كطريقة للتعبير بدون كلام، فمعظم أطفال العالم يعرفون أن وضع الإبهامين فى الأذنين، ومد أصابع اليد وتحريكها إلى الأمام والخلف تعبير لقول «يا غبى»![1].

ومن أطرف الإشارات التى يتخدم فيها الأنف والأذنان: إمساك الهندى لأذنه علامة اعتذار... وعقص البرازيلى لشحمة أذنه بالإبهام والسبابة يعد تعبيرًا عن استحسانه لشىء ما، كالطعام مثلاً.

وتكون قمة الإشادة والاستحسان حين يرفع البرازيلى يده اليمنى ويمدها فوق رأسه ليعقص بها شحمة أذنه اليسرى أو العكس!

ويستعمل الإنجليزى أنفه فيقرعه بطرف سبابته ليقول لمحدثه: «احتفظ بهذا الأمر سرا بيننا».

---

(١) مجلة الشرق الأوسط فى عددها الصادر فى ١٤/ ١٠/ ١٩٩٢ (بتصرف).

لكن الأمر سيختلط على محدثه إن كان إيطاليا، فيفسر الإشارة على أنها تعنى: «انتبه وخُذْ حذرك»... وقد يسارع فى هذه الحالة إلى اتخاذ تدابير، أقل ما يُقال عنها إنها كانت غير ضرورية، لو كان يتقن أبجدية الإشارات ولغة الأحاديث الصامتة[1].

ويلاحظ أن سوء فهم الإشارات ممكن أن يسبب حَرَجًا شديدًا أو أزمات فى مجتمعات أخرى[2].

* * *

(١) المرجع السابق (بتصرف).

(٢) كما حدث لشابة أمريكية ذهبت لزيارة عائلة فى اليابان، ونظرًا لجهل العائلة باللغة الإنجليزية، وضعف لغة الفتاة اليابانية لجأت إلى الحركات والإشارات لمساعدتها فى التعبير... وكانت الفتاة تشير بأصبعها إلى نفسها كلما شاءت أن تقول «أنا» فتفاجأ بالأسرة تشير بأصابعها بكل أدب إلى دورة المياه، فيحمر وجه الفتاة خجلاً كلما حدث ذلك، فتعيد المحاولة وتتلقى نفس الجواب.

وظلت هكذا حتى جاءها حل اللغز حين عرفت فيما بعد أن الإشارة التي تعنى «أنا» لدى الكثير من الشعوب تعنى باليابانية «أريد الذهاب إلى دورة المياه».

ولكن الأمر لا يقتصر فى بعض الأحيان على سوء تفاهم يمكن تصحيحه، بل قد يشكل أزمة دبلوماسية، ومن الأمثلة المشهورة على مثل هذا الأمر ما حدث لريتشارد نيكسون عندما كان نائبًا للرئيس إيزينهاور أثناء زيارته لدول أمريكا اللاتينية، فقد حدث أن استعمل إشارة تعنى للأمريكيين أن كل شىء على ما يرام، أو «أوكى»، وتتم بصنع دائرة من الإبهام والسبابة مع مد الأصابع الأخرى.. وزمجرت الجماهير غاضبة، حين شاهدت الإشارة، واحتلت صورة «نيكسون» وإشارته الصفحات الأولى فى صحف اليوم التالى تندد بإهانته لأمريكا اللاتينية، حيث تعنى هذه الإشارة «اذهب إلى الجحيم»... وتعتبر نفس الإشارة إهانة فى ألمانيا أيضاً حيث تعنى «يا أبله»... أما بالنسبة للفرنسى ـ خاصة ابن الجنوب ـ فتعنى نفس الإشارة «صفر» أو «لا شىء».. فى حين أنها تعنى فى اليابان «قطع النقد المعدنية».

* **عيد القرد الوحشى:**

من الأعياد التى يحتفل بها الصينيون «عيد القرد الوحشى» الذى ترجع أصوله إلى حكاية أسطورية مؤداها: أن قردًا متوحشًا كان يقيم فوق ربوة عالية إلى جوار إحدى القرى، وقد دأب أن يفترس كل من يصادفه من أهلها.

وحدث ذات يوم أنه كاد يفتك برجل له ثلاث بنات عذارى جميلات، فتوسل الرجل إلى القرد أن يخلى سبيله، ووعده بتقديم بناته الثلاث فداءً له...

وبالفعل بر الوالد المسكين بوعده، وبعث بفتياته الثلاث إلى ذلك الوحش الكاسر، فقضى القرد المسعور على حياة الأولى ونهش لحمها وعظامها، وفعل مثل ذلك بالثانية، ولما جاء دور الثالثة ـ وكانت بدينة ـ أصابته التخمة بعد أن أجهز عليها، فوقع مغشيا عليه، وعندئذ التف أهل القرية حوله واستطاعوا الفتك به، وتخلصوا من شره وجبروته..

بعدها قام أهل القرية بتشييد قوس بديع فى المكان الذى شهد هذه المأساة الدامية، تخليدًا لذكرى الفتيات الثلاث، وتمجيدًا لهذا الوفاء البنوى والولاء الخالص للوالدين.

ومن ثم اتخذ الصينيون من هذه المناسبة عيدًا قوميا يحج فيه الكثيرون إلى تلك البقعة الخالدة من كل عام، ينشدون الأغانى ويمرحون ويسمرون، ويتناولون أشهى المأكولات وأطيب المشروبات، ويوقدون الشموع، ويشعلون أعواد البخور.

وينتهز هذه الفرصة الباعة الجائلون فيعرضون ما لديهم من مختلف السلع والتذكارات، كالعقود، والأحجبة، والتمائم التى تجلب الحظ السعيد، وتبعد الأرواح الشريرة عن الأطفال.

وهكذا يمضى الأهالى يوم هذا العيد فى غمرة من المرح والتسامر والسرور.

وهناك أيضًا عيد يسمى «عيد إلهة الجبال» وفيه يصعد الأهالى إلى أعالى قمم الجبال المقدسة حيث يوقدون المشاعل، فتبدو تلك القمم وكأنها نار مشبوبة تنير الفضاء الواسع من حولها، ويقضون الليل فى احتفالات صاخبة.

هذا، وللصينيين أعياد أخرى تتجلى مظاهرها فى أجمل صورها فى المدن الكبيرة على الخصوص، حيث تغص الطرقات بالأهالى، وتضاء واجهات المتاجر ليلاً بالأنوار الكهربائية الساطعة، ويعلو صوت مكبرات الصوت فى تنشيط حركة البيع والشراء، وتجول فرق الموسيقى ذات الآلات النحاسية، وتسير فرق جيش التحرير فى عرض عسكرى رائع تعيد إلى الأذهان ذكرى حروب الاستقلال وانتصار القوات الشعبية[1].

* **عام التنين[2]:**

«التنين» ـ كما تذهب الأساطير الصينية ـ مخلوق يعيش فى السماء، كما فى الماء... وهو ليس مفزعًا وحشيا ينقض على الناس ليلتهمهم كما قد يخطر على البال... وهو خمسة أنواع رئيسية:

---

(١) الصين: حسن محمد جوهر وآخر... من «سلسلة شعوب العالم» (بتصرف).

(٢) «التنين» ـ كما يؤمن الصينيون ـ يعنى السعد والخير، وقد جاء ذكر عام «التنين» فى دليل صينى، تم تأليفه منذ حوالى ألف سنة.

كما قد يعنى سوء الطالع أيضًا إذا كان العام الذى يسبقه «عام الأرنب» فيصفه الدليل بأنه «عام أعمى» بلا ربيع، حيث إن عام الأرنب قد تمخض عن ربيعين مما يجعل العام الذى يليه بلا ربيع...!

أولها: التنين الإمبراطورى.. وهو رمز الإمبراطور فى المدينة المحرمة، وله خمسة مخالب فى القدم الواحدة، بعكس سائر التنانين ذات المخالب[1] الأربعة.

وثانيها: التنين السماوى حارس منازل الآلهة.

وثالثها: التنين الذى يوجه الرياح والأمطار، ويروى الحقول، ويتسبب فى بعض الأحيان فى إحداث الفيضان، لكن عن غير عمد.

ورابعها: التنين الأرضى الذى ينظف الأنهار ويعمق البحار، ويمد يد العون إلي البشر؛ ليساعدهم فى التحكم فى مياه الفيضان.

أما الخامس فهو حارس الكنوز، المحافظ عليها، وهو قد يصبح شرسًا بشعًا إذا لم يكن الطارق هو صاحب الكنز نفسه.

ذلك هو «التنين» الذى يحتفل الصينيون به فى النصف الثانى من شهر فبراير.

وإذا كان الصينيون قد ساروا على طريق لا يؤمن بديانات السماء، فإنهم ما زالوا فى أعماقهم أسرى الأساطير.. وهم يلجئون إلى التقويم لاستشارة حساباته الفلكية والجوية التى تم تسجيلها خلال مئات السنين، وتذهب هذه الأساطير إلى أن الزواج فى سنة تضم ربيعين يثمر سعادة وهناء... فى حين أن الارتباط فى عام أعمى يعد من سوء الطالع. وهى تحذر من أن الذين يتزوجون فى عام التنين سيصابون بالتعاسة، ومن اضطر إلى الزواج فى ذلك العام فإن عليه أن يتخذ كل الاحتياطات اللازمة؛ لأن زواجه مغامرة غير مأمونة العواقب!!

ولكى يتفادي الشباب مغامرة الزواج فى عام التنين، فإنهم يتسارعون خلال عام الأرنب للحصول على تراخيص الزواج الحكومية، فيصطفون فى طوابير طويلة أمام مكاتب التصاريح حتى ينهوا إجراءات الزواج[2].

* * *

(١) كان القصر الأمبراطورى فى بكين يعرف باسم المدينة المحرمة، وذلك فى العصور الماضية.

(٢) مما هو جدير بالذكر أن ازدياد عدد الزيجات خلال عام الأرنب معناه زيادة جديدة فى عدد =

• السنة الصينية:

يحتفل الصينيون بالأعوام الجديدة بمسميات غريبة: فهذا عام «القرد» يأتى فى أعقاب عام «الكلب»... الذى يسبقه عام «النمر» وهكذا... فالأعوام الصينية أعوام حافلة بأسماء الحيوانات؛ لتدل فى الوقت نفسه على شخصياتها وانعكاساتها على الإنسان، فمولود عام القرد يتصف بالمغامرة والطيش أحيانًا، إزاء مولود عام الكلب الوفى والهادئ.

أما مواليد عام «النمر» فإنهم يتصفون عمومًا بالجرأة، وقلة الصبر، والإقدام على المشاريع الكبيرة بدون تمحيص.

وكما أن لكل احتفال بطلاً يحتكر الاهتمام، كان للاحتفال الصينى بطل واحد، يترقبه الجميع بلهفة، ويصفق له الأطفال والكبار بحماس عند ظهوره الملون... إنه «التنين» الراقص على إيقاعات الطبول احتفالاً ببدء عام آخر قد يمنح العالم أفضل ما لديه.

* * *

= المواليد، مما يزيد من قلق المسئولين عن تحديد النسل، حيث إن سياسة الحكومة الصينية الحد من النسل والانفجار السكانى. فوضعت حوافز اقتصادية للأمهات اللاتى يتعهدن بإنجاب طفل واحد، فتمنح الواحدة منهن إجازة ولادة تصل إلى ستة شهور زيادة على المعتاد براتب كامل مدفوع، غير الرعاية الطبية المتميزة، وفى الأرياف تعطى العائلات ذات الطفل الواحد أرضًا لبناء بيت مع امتيازات أخرى.

*** السنة الإيرانية تبدأ بأول يوم من الربيع:**

من النظم الغريبة للإيرانيين تقويمهم السنوى الذى يختلف عن التقويم الهجرى والتقويم الميلادى، حيث تبدأ السنة الإيرانية أول يوم من فصل الربيع... ويوم رأس السنة الإيرانية هو يوم عيد «النيروز»، أقدم الأعياد فى إيران.

والسنة الإيرانية كالسنة الشمسية والهجرية تتألف من ١٢ شهرًا، مع فارق بسيط، هو أن كل شهر من شهورها الستة الأولى يتألف من ٣١ يومًا، وكل شهر من الستة الأخيرة يتألف من ٣٠ يومًا، إلا إذا كانت السنة بسيطة، فإن الشهر الأخير يتألف من٢٩ يومًا فقط، فالسنة الإيرانية كالسنة الميلادية تتألف من ٣٦٥ يومًا إن كانت بسيطة، ومن ٣٦٦ يومًا إن كانت كبيسة.

وهى تنقسم كذلك إلى فصول أربعة، كل منها ثلاثة أشهر:

فصل الربيع... ويبدأ فى اليوم الأول من «فروردين»، وهو أول أيام عيد النيروز، ويقابله دائماً يوم ٢١ من مارس، ويسمى الربيع بالإيرانية «بهار».

وفصل الصيف.. ويسمى «تابستان».

ثم فصل الخريف، ويسمى «بابيز».

وأخيرًا فصل الشتاء ويسمى «رفستان».

وأما أسماء الشهور فهى:

«فروردين».. وبه يبدأ فصل الربيع.. ثم «أرديهشت».. ثم «خردار».. وشهور الصيف الثلاثة هى «يبر».. «مرداد».. «شهر يور».. وشهور الخريف هى «مهر».. «آبان».. «آذار»... وشهور الشتاء هى «دى»... «بهمن».. «اسفند».

ويبدأ الأسبوع عندهم بيوم السبت، واسمه «شنبه»، فالأحد «يك شنبه»، والاثنين «دو شنبه».. والثلاثاء «سه شنبه».. والأربعاء «جهار شنبه».. والخميس «بنج شنبه».. والجمعة «جمعة آدنيه»[1].

*** ضوابط إسلامية فى وسائل الإعلام الإيرانى:**

هناك فى إيران ضوابط على وسائل الإعلام، ولا سيما التليفزيون، من تلك قائمة المحظورات التى رصدت على النحو التالى:

* السفور ممنوع فى كافة العروض الفنية، مع ضروة الالتزام بالزى الإسلامى الذى يسمى بـ «مانتو إسلامى» وهو يتكون من الحجاب والثوب الفضفاض الذى لا يبرز مفاتن الجسم، وهو القاعدة والأصل الذى لا يقبل الاستثناء تحت أى ظرف.

* الأغانى العاطفية ممنوعة، ولا سيما تلك التى تقوم على الغَزَل والتأمل فى جمال ومفاتن المرأة وغرامها.

* يحظر الغناء الفردى على النساء، فى حين يسمح بالغناء الجماعى.

* تمنع المشاهد العاطفية التى يعبر عنها بمشاهد الأحضان والقبلات وما شابه ذلك.

* الموسيقى التى تثير الغرائز وتؤدى إلى تغييب المستمعين يسرى عليها الحظر أيضًا.

* تمنع أيه إيماءات جنسية أو ألفاظ خارجة فى أى عمل أدبى أو حوار فنى.

---

(١) يلاحظ أن الأيام الخمسة التالية ليوم السبت تبدأ أسماؤها بالأرقام المتداولة فى لعبة النرد «الطاولة»، وهى «يك» بمعنى واحد.. و«دو» بمعنى اثنين.. و«سه» بمعنى ثلاثة.. «وجهار» بمعنى أربعة.. «وبنج» بمعنى خمسة.

obeikandl.com

* لا قيود على مختلف الفنون التشكيلية إلا فى ناحيتين: كشف العورات والنحت المجسم، إذ أن فقهاء الشيعة المعاصرين يبيحون التصوير بمختلف أشكاله، لكنهم يتحفظون على صناعة التماثيل باعتبارها من بقايا الوثنية، فضلاً عن كونها تقوم على محاكاة خلق الله تعالى.

هذا، وفى ظل تلك الضوابط صار التليفزيون الإيرانى فى الوقت الحاضر يتسم بالجدية الزائدة، وأصبح يهتم بالمسلسلات التاريخية، والحلقات الفكاهية، وبرامج الأطفال.. وذلك بعد أن كان جهازًا سيئ السمعة فى عهد الشاه، يعرض المباذل بين الحين والآخر، فقد كانت إحدى قنواته تعرض الأفلام الجنسية العارية التى كانت تصدم مشاعر الجماهير الإيرانية المحافظة المتدينة[1].

* * *

(١) إيران من الداخل: فهمى هويدى (بتصرف).

obeikandl.com

• الحوزة العلمية فى إيران[1]:

من النظم التعليمية فى إيران ما يسمى بـ «الحوزة العلمية»[2] التى تتدرج على مراحل ثلاثة:

* **سطح المقدمات**: ومدته خمس سنوات، وهو بمثابة دروس تمهيدية فى اللغة والبيان والبديع والفقه والأصول وعلم الكلام والفلسفة.. ومن الكتب المقررة في تلك المرحلة، وهى كلها باللغة العربية ـ ألفية ابن مالك، ومغنى اللبيب فى كلام الأعاريب، ودروس فى نهج البلاغة.

* **سطح المتوسط**: ومدته ثلاث أو أربع سنوات، يبدأ الطالب خلالها فى التخصص على يد أحد المراجعين.

ولا يقبل المرجع دارسًا إلا إذا حصل على شهادة تثبت إجازته من سطح المقدمات... وفى هذه الحالة فإنه يتقاضى راتبه من خزانة المرجع مباشرة، وهو ١٥ دولارًا فى الشهر للأعزب، و٣٠ للمتزوج، فضلاً عن أنه بعد التسجيل يصبح من تلاميذ المرجع، ويقيم فى أحد البيوت التى ينفق عليها.

---

(١) إيران من الداخل: فهمى هويدى (بتصرف).

(٢) الحوزة العلمية ليست معاهد علمية بالمعنى المفهوم، وإنما هى ساحات لتلقى العلم فى مدارس دينية مختلفة المستويات، لا علاقة للدولة بإدارتها أو الإنفاق عليها، وإنما هى تحت رعاية رءوس المذهب الذين يُطلق عليهم اسم «مراجع التقليد».

obeikandl.com

وفى هذه المرحلة قد يتخصص الطالب فى التفسير أو فى الفلسفة، أو نهج البلاغة[1]، أو التاريخ أو الاقتصاد المقارن، فضلاً عن مواد أخرى يدرسها، مثل كتاب الرسائل فى أصول الفقه، وكتاب المكاسب المحرمة للشيخ مرتضى الأنصارى.

* **سطح الخارج**: وهى مرحلة تؤهل الطالب لكى يضع قدمه على أبواب مرحلة الاجتهاد... وهذه المرحلة أشبه بمرحلة الدراسات العليا فى الجامعات، وليست هناك فترة محددة لإنجازها، فقد تستغرق سنوات محدودة، وقد تستغرق عمر الطالب حتى نهايته.

وفى سطح الخارج يبدأ الطالب فى إعداد البحوث الفقهية... ولكى يصبح الدارس مجتهداً لا بد أن يقوم أستاذه بتقييمه وإجازته لتلك المهمة.

هذا، ويعطى الدراس فى كل مرحلة لقباً علمياً يُرْفَع كلما تدرج فى السلم التعليمى حتى يبلغ ذروته.

فإذا كان لا يزال فى مرحلة سطح المقدمات فهو إما طالب أو مبتدئ، وإذا انتقل إلى مرحلة سطح المتوسط فإنه يمنح لقب «ثقة الإسلام»، وإذا التحق بسطح الخارج ثم أنهى دراسته فإنه يصبح «حجة الإسلام»، وإذا أُجيز للاجتهاد فإنه يحمل لقب «آية الله»، وإذا بدأ يمارس عملية الاجتهاد فى حلقات الدرس ويؤسس قاعدة شعبية له فى الحوزة فإنه يصبح «آية الله العظمى»، أما إذا اتسعت دائرة مريديه بين جماهير الشيعة، فإنه يصبح مرجعاً، وإنْ ظل محتفظاً بلقب «آية الله العظمى».

* * *

(١) خطب وكلمات الإمام علىّ رضى الله عنه.

* **برلمانات فى الهواء الطلق:**

من النظم الغريبة فى بعض المقاطعات السويسرية كمقاطعة «جلاروس» و«أبنزل» . . و«شويز» . . أن يكون مكان البرلمانات فى الهواء الطلق فيما تعرف باسم «لاند سيجميند» والتى تعقد مرة كل عام.

ويرجع هذا التقليد إلى العصور الوسطى. . . ويعد أهم الأحداث السياسية فى العام، ويكون ذلك فى الأحد الأخير من شهر أبريل، أو اليوم الأول من شهر مايو، حيث يتجمع كل الرجال الذين هم فى سن الحادية والعشرين أو أكثر فى ميدان المدينة لانتخاب أعضاء الحكومة الإقليمية، وعرض القوانين الجديدة، ومشروع الميزانية على الشعب.

ومن التقاليد المتبعة أن يحمل كل رجل فى المقاطعة سيفًا، يرجح أن يكون من الموروثات العائلية، ويرجع هذا التقليد إلى وقت كان لا يرخص فيه بحمل السلاح إلا لمن لهم حق التصويت، وجدير بالإشارة أنه يتجمع الرجال والنساء والأطفال لحضور هذه المناسبة الهامة على دق الطبول، وقرع أجراس الكنائس، وإنشاد الأغانى الشعبية، وعزف الموسيقى العسكرية.

ويظهر موكب الرؤساء الدينيين يتقدم فى بطء، وعلى رأسه ضابطان من الحكومة يرتديان ملابس سوداء وبيضاء، ويحملان أعلام المقاطعة، ثم يتبعهما الرجال الرسميون فى المقاطعة وعليهم «أروابهم» الطويلة.

يبدأ الاجتماع عادة بالصلاة التى يشترك فى أدائها الجميع، وينشد كل الحشد فى صوت واحد الترنيمة التى تقول: «كل الحياة تصدر منك». . ثم يرددون بعد ذلك قَسَم الاتحاد وهو:

«إنى أعرف واجبى، وسأحاول أن أؤديه بكل إمكانى. وفى هذا أرجو وأضرع إلى الله أن يساعدنى».

ويلاحظ أن هذا الأداء كان متبعاً من قديم بكل جلاله، مما يساعد على إعادة ذكرى الأمجاد الماضية[1].

* * *

*** المخدرات علناً:**

فى أمستردام العاصمة الهولندية ليس غريبًا أن يسمح بالبيع العلنى للمخدرات فى المقاهى، بل الأكثر من ذلك اللافتات الإعلانية عن الأنواع الجديدة وأسمائها ومدى جودتها.

وليس غريباً أيضًا وجود دليل لهؤلاء المتعاطين للمخدرات تبيعه مكاتب السياحة فى «أمستردام»... وهو كتيب أزرق توجد به أفضل مقاهى هولندا.

كما توجد أيضًا مجلة نصف شهرية تدعى «هاى لايف»[2] وهى متخصصة فى المخدرات، «كالحشيش» و«الماريجوانا» وغيرهما.

وتبقى طقوس المقاهى فى «أمستردام» حيث البروتوكول لا يختلف كثيرًا عن المطاعم. فالزبون يطلب «قائمة الأصناف» ليتعرف أولا على المخدرات المتوافرة لهذا اليوم سواء المغربى، أو الأفغانى، أو الباكستانى، أو الهندى.. ثم يأتى الجرسون ليعرض الأنواع الجديدة مثل «البولدوج»، أو «السنسميلا»، أو «الشونك» الذى يعد أفضل الأنواع المتداولة ـ كما يذهب المدمنون.

والأكثر غرابة أنه من الممكن أن يُسْمَع زبون فى أحد المقاهى وهو ينادى على «الجرسون» بصوت عالٍ طالبًا سيجارة «حشيش» على مرأى من رجال الأمن!.

* * *

(١) سويسرا: شعبها وأرضها: ليليان براجدون، ترجمة كمال الملاخ (بتصرف).
(٢) صحيفة الحوادث، عددها الصادر فى ١٤/١/١٩٩٣ (بتصرف).

* **قانون يحترم:**

يحترم النرويجيون القانون، ويقدسون العدالة وحرية الفرد... ولقد جعلوا شعارهم منذ القرن الثالث عشر:

«بغير القانون تقوض الأركان، وبه تبنى الأوطان».

والملفت للانتباه أن دستورهم وما أُدخل عليه من تعديلات منذ قيامه فى عام ١٨١٤م يعمل به حتى الآن.

وينص دستورهم على أنه لا يُسجن شخص بغير محاكمة، ولا تصدر ضده عقوبة بغير ما ينص عليه القانون، كما أنه يحظر استعمال القوة ووسائل التعذيب فى استجواب المتهمين، ثم إنه لا يجعل أثرًا رجعيا لما يصدر من قوانين.

ويكفل الدستور النرويجى كذلك حرية الرأى بالقول أو بالكتابة فى كل الأمور، حتى ولو شمل نقدًا للحكومة أو للبرلمان[1].

* * *

* **سوق النساء:**

فى إقليم «مدنى» بالسودان سوق ٩٠٪ من رواده من النساء، سواء كُنَّ بائعات أو مشتريات أو «متفرجات» أو مشجعات.

وبسوق النساء تقوم النساء بتسويق أصناف شتى من المصنوعات اليدوية التى تميز بها المجتمع السودانى، وتعتبر من ضرورات ومستلزمات الأسرة هناك.

---

(١) تعليق: نهدى هذه الفقرة للنظم الشمولية الديكتاتورية فى دول العالم الثالث التى تحرص على مصادرة الحريات وتكميم الأفواه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، متوهمة أنها توجد حالة الاستقرار فى بلادها، وتجهل أن تحت الرماد وميض نار سيشتعل بين الحين والآخر ليلتهم من يتربعون على كراسى السلطة، ولا يبالون بسيادة الشرع والقانون.

ومن تلك «البروش» ذات الألوان الزاهية، وهى من رموز الفرح السودانية، وتستخدم فى حفلات العرس والختان، وما بينهما من طقوس.

كذلك «البروش البيضاء» التى تُستخدم فى المآتم لحمل الميت إلى مثواه الأخير، أو لصلاة الجماعة، أو خلال ليالى رمضان للإفطار عليها، وفى مناسبات الأعياد.

أما «الطبّاقة» فتستعمل لتغطية أوانى الطعام، وتتميز بألوانها المنسقة التى تتداخل فى شكل دائرى جذاب، وتحتل جانباً كبيرًا من السوق.

وهذه الطبّاقة تقوم بصناعتها النساء داخل دورهن، وتصنع من ألياف شجر النخيل وسعفه، ويقمن بصبغه بالألوان المتعددة.

وهناك «الجَبَنَة» وهى وعاء من الفخار أو الصفيح أو الصينى، حيث توضع بها القهو، وتعتبر من عادات أهل السودان التى يتوارثونها عن الأجداد.

وتعد جَبَنَة الفخار من أكثر الأنواع التى يحبذها السودانيون، حيث تصنعها النساء، ويقمن بحرقها حتى تصير حمراء اللون، ثم تقوم النساء بصنفرتها حتى تصير ناعمة الملمس، وتوضع فى طوق دائرى يعرف بـ «الوقاية»، وهى تصنع من القماش والورق المقوى وتطرز بـ «الخرز».

والأسر العريقة تمسح واجهة «الجَبَنَة» الخارجية بعطر الصندل المحبب. ولم تهمل النساء حاجات الرجال فالطواقى لرءوس الرجال، وهى من الصناعات اليدوية التى يصنعنها بإبرة «الكروشيه» والخيوط البيضاء أو الملونة الناعمة فى أشكال هندسية بديعة تنم عن ذوق أنثوى رفيع.

ولا يخلو سوق النساء من الحاجات اليومية من بهار وعطور نسوية مختلفة، وبعض أدوات الزينة الخاصة بالمرأة السودانية، بالإضافة إلى المعدات

المنزلية المحلية التى تستخدم فى المطبخ السودانى، مثل «المفراكة»، وتصنع من الخشب، وهى عبارة عن يد خشبية لها رأس أفقى الشكل... و«القرقريبة» وهى قطعة بيضاوية الشكل من السعف العريض المقوى، وهى طبق سودانى أصيل... وهناك «الدلوكة» وهى آلة موسيقية شعبية تستخدم فى الأفراح ولا تستغنى أسرة عنها.

كما يفيض سوق النساء بالمنتجات الألبانية، كالجبن الأبيض، والكرافت، حيث تقوم النساء بصناعتها فى منازلهن...

هذا، وأهم ما يميز سوق النساء عبارات الترحيب التى تتردد للجميع، ومنها «حبابكم عشرة»[1].

* * *

(١) مجلة سيدتى الصادرة فى ٣١/ ١٢/ ١٩٩٠ (بتصرف).

obeikandl.com

• قوانين غريبة فى المجتمعات المتحضرة :

تتجه الشرائع الحديثة فى مجتمعات متحضرة ـ كفرنسا واليابان ـ إلى معاملة الزوجين على قدم المساواة بالنسبة للزنى، سواء من حيث الجزاء عليه أو من حيث اعتباره سبباً للطلاق.

* ففى فرنسا مثلا يقع زِنَى الزوجة تحت طائلة العقاب فى أى مكان حدث، ولا يشكل زنى الزوج جريمة إلا إذا وقع مع عشيقته فى بيت الزوجية..

وبينما تعاقب الزوجة الزانية بالحبس لا يتعرض الزوج الزانى إلا لغرامة.

كذلك بينما يكون للزوج الحق فى أن يطلق زوجته بسبب الزنى فى أى مكان وقع، لم يكن بوسع الزوجة طلب الطلاق إلا إذا كان الزنى قد حدث من الزوج مع عشيقته فى بيت الزوجية.

أما الآن، فقد أصبح لكل من الزوجين الحق فى أن يطلق زوجه بسبب الزنى دون تفرقة بينهما.

* وفى اليابان.. لم يكن اتصال الزوج بامرأة أخرى غير متزوجة يعد جريمة زنى يُعاقب عليها... وليس للزوجة أن تطلب الطلاق لهذا السبب... فى حين أن زنى الزوجة يقع تحت طائلة العقاب، فضلاً عن اعتباره سبباً للطلاق.

أما الآن فقد اختفت التفرقة بين الزوجين فى مجال القانون الجزائى بإلغاء الجزاء على الزنى كلية.

وبالنسبة لاسم الزوجة، فقد جرت العادة أن تحمل الزوجة اسم أسرة زوجها، فقد كان الزواج يستتبع دخول الزوجة فى أسرة الزوج وتصبح فرداً منها؛ ولهذا كان من الطبيعى أن تحمل اسمها.

فبينما كانت الفتاة أو المرأة غير المتزوجة تحتفظ باسم أسرتها، كانت المرأة المتزوجة تتخلى عن هذا الاسم وتستعيض عنه بلقب الزوج، أى اسم أسرته، وعندما يحدث طلاق تتخلى المرأة المطلقة عن اسم الزوج وتستعيد اسم أسرتها.

أما فى الوقت الحاضر فلم يعد هناك إلزام للزوجة بحمل اسم زوجها، باعتبار أن إلزامها بحمله ينطوى على نوع من عدم المساواة بينهما.

* * *

oberkandl.com